LAILA AL-ATRASH

ليلى الأطرش

نساء على المفارق

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

على مفارق الطرق أشباحُ هائمة
لـــــــــــاء من ريح
تتـــراقصُ ظلالاً في الأمكنة
تُحـــتلُّ روحَ دروبا لم تكن لهـــا
نصـــــيران واحـــــداً
مـــــثلَ حـــــواءَ والجنّةْ
روحَ صـــالحـــة أو متـــمـــردة
حـــاخـــبـــةً أو هادئة
هي امـــــــرأةٌ لـــلأمـــس
ولحـــاضـــرٍ وقـــد لم يأت
إذ تروي شـــهـــرزاد
قـــصـــصـــا وحكايات
عن حـــالمٍ صـــارَ امـــرأة
وروحٍ غـــريـــبـــة هائمـــة
وقـــعـــتْ صـــلةُ احـــتلالِ المكان
والـــذاكـــــــرة
مَلَكَتْ زمـــانَه والطريق
ونـــبضَ الـذكـــــــرى

شكر

تحتفظ بما تعرف ، وتعتقد أن لجاربك لك وحدك ، وأنها لن تهم سواك ، حتى يطالبك بها غيرك .

صوت يؤمن أن في ذاكرتك ما قد يختلف ، يفجّر فيك رغبة الاستعادة والبوح ، ويقنعك أن ما في عمرك قد يعني آخرين .

يهتف بك صوت من لم تلتق ، يحرضك أن تنبش ذاتك ، ويلح أن توقظ لحظات التصادم مع بشر وأمكنة ، حين فردت لك الحياة شراع الترحال والتماسّ ، فصير شاعر ربابة على درب .

إلى

كل من اعتقد أن في تجربتي ما يستحق الوقوف

إلى كل من طالبني أن أروي- فاقتنعت

وإلى كل هذه الأسماء الحقيقية في تطواف الذاكرة

لهم شكري الجزيل

المحتويات

- المامة السوداء 11

- قالت ربى وسكت الرجال 44

- ابنة السماء ... جميلة 69

- عزة ... يتيمة الرباط 99

- راكبة من الدرجة الأولى 129

- امرأة من المنطقة الحمراء 149

- قتيلة الشرف ... لا اسمٌ ولا عنوان 167

الماسة السوداء

التقيت مريم عبد الدائم في مدينة الجسور ، بتسبرغ الأمريكية خريف ٢٠٠٨ . مدينة يقطع سكانها ألفا وسبعمائة جسر إذا خرجوا منها و٧٢٠ إذا تجولوا فيها .

عينا مريم حجرا زفير إفريقي حملتهما موجتان إلى شاطئ غريب ، وجلدها تبر يلتمع في تربة خصبة بكر إذ تلفحها أشعة الشمس .

شعرها قلائد من مئات الجدائل الرفيعة ضفرتها أمها على شرفة تطل على المحيط الأطلسي . . تحت خاصرة ذلك الجزء الغربي من القارة السمراء تطل على الأطلسي ، وقبل أن تضيق وتنكمش في خليج يبدأ عنده نصفها الجنوبي . . . تحدّر مئات من الجدائل الرفيعة وجه شابة إفريقية ، امتزجت فيها دفء ملامح أهل الشرق من القارة السمراء ، الصومال وإثيوبيا ، مع اللون الداكن للقبائل الزنجية في وسطها . .

تجمع مريم تاج ضفائرها في دبوسين من مرجان بلون ثغرها الواسع ، قوامها رمح لم تستطع أرض إفريقيا أن تحجز انطلاقه ، فمضى سادرا خارج الحدود يبحث عن ذات يحققها .

كانت نصائح الوالدة لتعقد مع نهاية كل ضفيرة . . تربطها بخشية الأم من مجتمع غريب ، لا تشبه قيمه ما تربت عليه مريم . . وتعرف أن فضاء المياه اللامتناهي سيحمل صغيرة كبرت ، من حضنها ورعايتها إلى عالم بعيد مشوب بالخوف وخشية القادم باختلافه ديانة وفكرا وحرية شخصية . .

ساحل الكاميرون بلاد ممتدة ، اختلطت فيه الأجناس والمذاهب ، وخبرت فيه مريم طفلة امتزاج العرق واللون وتعدد الديانات ، كبرت بين عمال ونجار وأصدقاء جمعتهم أملاك جدها من الغابات الكثيفة . فالجد نقيب نجار الخشب في الكاميرون ، وأكبرهم سنا وثروة ، فشبّت مريم تركيبة فريدة من الاعتدال وقبول الآخر . . ربّتها خادمة مسلمة بيضاء ، وتعلمت في مدارس تبشيرية مسيحية مختلطة ، وصادقت طفلة أترابا بيضا وسودا يسكنون في بيوت العمال ، وزاملت طلابا مسلمين ومسيحيين ويهودا ومن ملل أخرى دون أن تعي الفروق . . وعلى مائدة جدها عُقدت صفقات الأخشاب بلغات غربية ورجال من أصقاع بعيدة ، وكبرت وتعلمت بينما أشجار الأبنوس والتيك في تلك المزارع تتحدى قطعها بنمو لا يتوقف .

صحبتني مريم وثلاث من زميلاتها في جولة إلى المدينة بعد انتهاء المؤتمر ، وكان لا بد من تجربة الإنكلين (Duquence Incline) ، حيث جادة «فرانك فيو لفتيو» أو المنظر الأوسع . . ونستقل قطارا صغيرا يشق جبل والشطن الشاهق .

يشهق زائر يتسرع حين يتوقف القطار عند القمة ، ويدرك لماذا خرّ السكان الأصليون سجودا لقدرة الخلق يوم تكحلت عيونهم بما رأوه أول مرة ، تمثلوا «الروح العظيمة» تختار المكان الأجمل في طبيعتهم البكر لتسكنه ، فغنوا للأرض أشعارهم ، ومن قوتها استمدوا وصاياهم العشرة ، عن الروح والإنسان والخير ، وعن ماء وسماء وخضرة لا متناهية تحيط أنهارا ثلاثة . . مونونغاهيلا Monongahela والليغهاني Alleghany وأوهايو Ohio اختارت أن تلتقي وتتحد في نقطة واحدة .

دنّس المستوطنون طبيعة عذراء فقاومتهم ، وردت عدوانهم بأن فتكت بهم ، وحين خففوا بأسهم عليها بدأت تستعيد ألقها ، وتُجدّد شبابها في غزارة الأمطار وخصب ترابها . . خضرة تقاوم اقتحام البناء والجسور فتُهْزَم . وتظل تحنو وتحتضن ضفتي الماء بخضرة كثيفة .

وحده جبل وشتطن ظل شامخا متحديا ، وشاهدا على روعة الخلق . . وقف انحداره الشديد مانعا ضد اقتحامه . . فقط سمح لخط القطار الضيق أن يخترق ثناياه ، ليشهد كل من يستقله على ما كان يوما مدى أسرا ، فريدا لا يشبه مكانا آخر .

ما زالت تلك الإطلالة ساحرة ، منظر سجدت له قبائل السكان الأولين ، أذهلهم ما رأوه فتوصلت فطرتهم إلى ألهة تستطيع خلق هذا الجمال ، تمثلوها في الطبيعة وقوتها ، الأرض والماء والريح العاتية . صلّوا لها حين تجمح أو تهدأ ، ثم جاء الفرنسيون على قوارب تحمل طمعهم وتحارب على حصتها من عالم جديد . هو الجمال البكر الذي

عهّره القادمون حين أنهكوا أرضها ولوثوها برغبة الاشتهاء والثروة والاغتصاب ونهم لا يرتوي ، رأوا في حمرة ترابه قدسه الأولون حديدا ، وفي لمعان خلته «الهنود الحمر» انبثاق النور من طبيعة متقلبة مجرد فولاذ وصناعة وثروة ، تصادم للمقدس والدنيوي . . هزمت واندحرت قصائد تقدس حمرة الأرض وتتغنى بلمعان شعرها .

امتهن الباحثون عن الثروة هدوء المكان وجلال الصمت ، بنوا مدينة بتسبرغ لم يجعلوها فاسقة بشهواتهم ، قذرة بإفرازاتهم ، فشاخت وتلوثت .

ويوم زرتها كانت تغتسل من خطاياها ، تتطهر من دنسها بتوبة صادقة .

لم تعد بتسبرغ مدينة التلوث والسواد ، بل ثانية تكافح لتستعيد ألقها وبهاءها بعد حملة وطنية أمريكية بدأت عام ١٩٧٢ ، أخرجوا مصانعها ، وحموا أنهارها وكافحوا تلوثها .

وبتسبرغ مدينة التناقضات ، وإن ظل شعارها التميز والتفرد في كل ما تقدم أو تقبل أو تفعل ، خلابة ، شهية ورافضة تتفجر بالحياة ، تماما كما هي مدينة العلم والمعرفة ، فيها ٢٩ جامعة وكلية ، وسجّل متنزه كينيود بارك الرقم القياسي في تنوعه واتساعه ، وعلى أرضها أقيمت أكبر حديقة للطيور جمعوا فيها أغرب الأنواع وأندرها ، ونالت جائزة المدينة الأكثر حيوية في أمريكا مرات عديدة ، ومنحتها الطبيعة هدية لا مثيل لها ، التقت أنهارها الثلاثة عند نقطة واحدة ، فأقاموا

عليها نافورة كبيرة يتدفق ماؤها بلونه الوردي متراقصا لعشرات الأمتار ، فلا تخطئها عين من كل الاتجاهات ، وعن مسافات بعيدة .

بجرافات وحفارات وآلات تنقيب ، وبشهوة الامتلاك والثروة بدأن مأسأة بتبرغ ، لتباح للمستوطنون القادمون إلى العالم الجديد هدوء الطبيعة . دلسوا جمالا وهدوءا لم يسمع منذ وُجد سوى غناء العصافير ، بنام ويصحو على انسياب الجداول والأنهار وصلوات السكان الأصليين . . ضجت المنطقة بهدير آلاتهم . . واقتلعوا خضرة الجبال وغيروا تضاريسها ، ونبشوا ترابها بحثا عن ثروة لا تنضب ، فهجرت الطيور أوكار الأزل لسرابا ، جزعة ، وارتحلت قطعان الجاموس البري رمز القوة عند السكن الأصليين ، وانقرضت حيوانات نادرة لمستوطنت غاباتها قبل البشر ، وما تبقّى أسروه في حدائق .

رحلة موازية مشاها السكان الأصليون كحيوانات أرضهم «طريق الدموع» درب القهر والظلم سبق فيه من تبقى من قبائلهم إلى محميات خاصة ، كانوا يبكون وطنا سُلب ، وحياة قُيّدت باتفاق ، وأرضا انتُزعت منهم وملكوها قبل أن يدري بها أحد ، يجرّون آلامهم في طريق الذل والقهر :

أنظرُ خلفيَ إلى الطريق الطويلْ
وقلبي مُثقلٌ بأحزان شعبي
أبكي دموعَ حزني
على كلّ ما فقدْنا

إذ نُجِرّ من أرضٍ وُلدْنا فيها
إلى طريقِ الدموع

••

ارْثِبْ ضعفَنا وسقوطنا
على درب مثلَ الأوّلين
الدموعُ في عينيّ . .
واحتضنْ امرأتي
تلفظُ روحَها في ذراعيّ
على طريق الدموع

••

أميالٌ تتابعتْ وأيامٌ لجري
يتناقصُ شعبي مع بزوغِ كلّ شمس
أمراضٌ فتاكةٌ وجوعٌ
ورغم المعاناة نسيرْ
على طريقِ الدموع .

••

تذكرني القصيدة الأشهر في حياة الهنود الحمر «طريق الدموع» بذلك الطريق هناك في مدينة القدس القديمة ، حيث حمل الناصري ثقل صليبه بلا إثم ، يجرُّه بحزنه ودمائه إلى جبل الجلجثة ليصلب . ويُسحب المواطنون الأصليون مقيدين مثله بغير ذنب ، إلا أنهم ولدوا

على أرض لم يطأها أحد قبلهم ، ولم يعرف بوجودها غيرهم ، وربٌ خلقها .

صرخ عيسى بن مريم إلى ربه «إيلي إيلي لماذا شبقتني ، إلهي إلهي لماذا تركتني» ، ولقنع الهنود الحمر أن «الروح العظيمة» لم تسمع صراخ استغاثتهم ونداءهم ، فرعوا لها طبولهم حول النار المقدسة ، ولكن حارسة قبائلهم وأرضهم تخلت عنهم وتركتهم يساقون بذل وقهر وموت في محنة طريق الدموع .

لم يهتم القادمون الأوروبيون إلى بنسلفانيا وهم يتسابقون على ثروات العالم المُكْتَشَف بتوازن الطبيعة . . وأصابهم التعطش للثروة ونهم الشسابق عن جمال ظل يخشع لخالقه في سكون . . دمروا سلامه واستباحوا نقاءه وجلال سكونه الأزلي . . وألقوا بفاضوراتهم في وجه كل شيء ، دنسوا الأرض والماء ، وذوى صخب وهدير الحركات ، لوثوا أنهارا ظلت تجري منذ كان البدء . . تحتضن أسماكها وتكاثرها في سلام فتغطي صفحة الماء . . وتتقلب بين هدوء وعنف لتصل البحيرات الكبرى وخليج المكسيك .

غطت سماء بنسبرغ غيوم للصانع وسوادها ، وأعلنت مدينة متكونة بالتلوث .

وبنسبرغ واحدة من أكبر مدن ولاية بنسلفانيا وتتصل بنيويورك . . هي مدينة التنوع والاستعراض والجامعات والمطارات والفرق الرياضية والشواذ .

وامتزج الجنسيات وتضيع الأصول والأعراق ، ففيها من كل بقاع الأرض قاطن مقيم ، سكانها خليط من أمريكيين وأفارقة وجاليات تكْبُر أو تَصْغُر ، من البلاد العربية وإيران وباكستان والبرازيل وبريطانيا وبلغاريا ومقدونيا والصين وفرنسا وألمانيا واليونان والهند وأيرلندا وإيطاليا واليابان واليهود وكوريا والمكسيك .

لا أحد يسأل عن الجذور في مدينة الاختلاف والقبول والتعايش أو يعيرها اهتماما ، وكل ما بقي من الأعراق للهاجرة صور أسلاف علقها الأحفاد في لوحات وإطارات ، بهتت واصفرت بالزمن . . صور لسفن الأجداد وهي ترسو على شواطئ هادئة خالية ، وتهتز وترتج بأحلام القادمين ، أو كتب تروي تاريخا وذكريات عن رحلة الأسلاف ومعاناتهم في البحر والأرض ، وعن صراعهم أو تحالفهم مع السكان الأصليين ، وعن بطولة وصمود وانتصار على قسوة الطبيعة وهوامها ومستنقعاتها . . ولم تشر تلك الكتب القديمة إلى أنهم جاءوا إلى نقاوة الأرض بأمراض لم تعرفها قبلهم . . فتك الطاعون والبنادق بآلاف من سكان الأرض ، فلم تكن أجسادهم قد ربت المناعة الطبيعية ، وأرضهم نقية مثل أجسامهم لم تعرف العدوى أو تولد الجراثيم ، هي أصقاع تجاوز اتساعها قدرة بشر خلقوا عليها ، فلم تطأ امتدادها أقدام الإنس . . كانت القارتان أوسع وأكبر من آلاف لم يتجاوزوا العشرين من قبائلها . . فتك الداء القادم من القارات القديمة بالسكان الأصليين ، ولجأ حاملوه من قارات كوّنت مناعتها باعتياده .

لا يحتاج المرء في بتسبرغ سببا ليجمع الناس إذا ما رغب الاستعراض ، كل مستعد للحظة لهو عابرة . . يكفيه أن يبدأ بإطلاق ألعاب نارية فتسير المدينة وراءه هاتفة ، أو يبدأ عزفا منفردا على آلة موسيقية أو مع فرقة ، فيتحلق أهل بتسبرغ حوله راقصين ، يهتفون ويغنون ، ويعبّون حتى الشمالة لحظة عابرة لا تحتاج مبررا لارتشافها .

نتوقف مع مريم ورفيقاتها أمام «بيت تيكفاه (المعبد أو السينغوغ) اليهودي ، أي بيت الأمل بالعبرية ، وهو أكبر تجمع للشواذ والمثليات ومن يمارس الجنس من الجهتين . ويشترك في حفلاته الصاخبة الأعضاء وأصدقاؤهم وعائلاتهم . . لا حرج ولا رفض في مدينة لا تقتحم خصوصية أحد ما دام يحترم القانون .

كل شيء على المكشوف في مدينة امتدت على أكبر ميناء طبيعي حفرته طبيعة جامحة في عصور التكوين . وفيه سمحت الطبيعة لأنهارها الثلاثة أن تتحد في واحد ، انسابت الأنهار من ذوبان الثلوج بعد عصر الجليد ، تجري وتلتقي وتكمل مشوارها وتختفي في البحيرات العظمى ، عبر ماتي غيّر التاريخ الأمريكي يوم حملت صفحته أشرعة المكتشفين ، يبحثون عن عالم مجهول آخر فوجدوه في قارة جنوبية . . تفاسموا بلادا بداتية ثرواتها تفيض عن نهم كل الطامعين ، وستكون أكبر حياة يدب في عروق قارات مصروفة شاخت ، وتعبت بطول الاستغلال .

أطلّ من قمة جبل واشنطون على المنظر الساحر ، أقرّب بالمنظار

جبالا ومياها وبيوت غنى وجاه ، تزحف وتختفي بين خضرة ممتدة ، ولحول جمالا غير عادي إلى مدينة إسمنتية حديثة .

تطفو الأنهار الثلاثة فوق المعادن وقد استعادت صفاءها ، وأرض بتسبرغ حمراء قانية بالحديد ، فصارت مدينة الحديد والصلب ، جسورها من معدنه ، وبنايتها الرمز لمجد العرفان لمصدر الثروة (مبنى الفولاذ الأسود) (black steel building) .

لم يكن همُّ صيادي المال والمتسابقين على كنوز الأرض الاعتناء بطبيعة لم تسمع إلا صلوات سكانها ، ولم يشغلها سوى سجودهم فوقها ولها ، فتحولوا الجاري إلى صفاء الماء بمخلفات كل شيء ، البشر والمصانع . . وغطت السماء سحب السواد حدادا على موات أشجارها ، وحين طغى البشر أكثر ، نفد صبر الأرض ، وردت الأنهار المقدسة عدوانهم ، فتكت بأسماكها ، وانتشرت بكتيريا لا ترحم أجبرت الناس على البقاء في بيوتهم مع مغيب كل شمس . وأعلنت بتسبرغ مدينة الملوث .

كنت سأشارك في مؤتمر أدبي في جامعة شاتام في بتسبرغ صيف ٢٠٠٨ . وكلما ذكرت هنا أمام أمريكي ألمح شفقة على حماستي ، ويشيرون بلا تفاصيل إلى تلوثها! وشددت صاحبة السكن في ايوا حيث أقيم ضمن برنامج الكاتب المقيم على ضرورة أن أجتنب الأسماك تماما ، ولا أشرب إلا ماء معدنيا .

تخيلت مدينة يجللها سواد الدخان ، يسرق زرقة أنهارها ، ويمحو

خضرة غاباتها ، ومبانيها كابية .

وحين تجولت فيها ، اقتنعت أكثر بأثر الفكرة الأولى على الفكر الجمعي ، فحين يطال الاتهام شخصا أو قضية ، وتُنشَر في صحافة أو وسيلة إعلامية أو تصبح قضية رأي عام ، ثم تثبت براءة الشخص وخطأ الاتهام وبطلان ما قيل ، تبقى التهمة راسخة ، وقلما يعتني أحد بنشرها . . هي رغبة الناس في قصص وفضائح غير عادية ، وقليلون اهتموا بتغيير رأي كان لهم ، عن مدينة جميلة تابت وتطهرت .

تأسست بتسبرغ عام ١٧٥٨ ، وقتلوها في عصر الصناعة ، وحاولوا إنقاذها في عام ١٩٧٢ .

صحبتني مريم عبد الدايم مع صديقاتها إلى الإنكليز ، يتوقف القطار على القمة ، نطل على بانوراما المدينة . . جبالها وأنهارها الثلاثة وجسورها ومتنزهها والنافورة الوردية الضخمة .

حدثتني مريم بينما نشرب القهوة في مقاهي وسط المدينة . . ودودة صادقة منفعلة وبريئة ، عشوقة الفوام كغزال إفريقي هارب في توجس مما حوله . . وكل ما حولنا يُذكّر بمدن الأفلام الأمريكية القديمة ، حين يدفع رجال الكاوبوي أبوابا بأرجلهم ، ثم يطلون شاهرين مسدساتهم من بيوت وحانات تشبهها ، شوارع وعمارات وأزقة تنم عن أن كل شيء هنا بدأ صغيرا كأحلام المهاجرين ، وقبل أن يتوحش ويمتد .

تبوح مريم الجميلة ، عن حيرتها في أن تبقى ذاتها في مدينة

الحرية ، أو تصبح كصديقاتها الجدد ، أن تقبل قناعات ثقافة ومجتمع غريب فتتمرد على تعاليم تربت عليها وحملتها معها .

يقف الله بين مريم وانطلاق تَوَدُّه ، ويمنعها خوفها منه أن تترك قلبها الشاب يخفق لأحد ، فتقلقه دون نبض كثيرا ما يبدأ فتشده ، وتصم أذنيها دون همسات الإعجاب ، وترد بلطف أو عنف دعوات الزملاء ، وتحتمي بصديقاتها ، فهي تخشى من علاقة قبل الزواج تغضب الله ، فهو لها بالمرصاد ، شديد العقاب ، ويعلم ما في الصدور .

يُمضي والدها ساعات يقرأ لها آيات عن عذاب القبر والنار المُعَدّة للخطاءين وأصحاب الذنوب ، ليعيد خطوة لها - ربما - تنحرف عن خط رسمه لابنة يحبها ، ويخشى عليها من نار جهنم وبئس المصير .

شابة جميلة وحائرة بين أن تقتنع بأن حريتها أمر شخصي محض ، فتقبل قناعات غريبة وتتمرد على امتلاك والدها لأمرها ، أو تظل كامبيرونيا رقم أمريكا ، تنتظر أيام عودتها إلى حضن أمها وحنانها ، ثم ترتبط بشاب من بلدها وتقاليدها لن يقبل بماض لها .

تخيف مريم فكرة الحب والزواج . . تخشى أن تعشق في بنسبرغ فيُرتَّب لها زواج في بلدها ، وتقلقها فكرة الفشل في أي منهما . . تطفئ حرارة مشاعرها قبل أن تدفأ ، ولم تسمح لقلبها الفتي أن يتجاوز الإعجاب . تحذره من حب وعلاقة أمريكية قد تجمع مطلبها ، أو تضع فيها حدودا لا يفهمها الآخرون . . فتردُّ عيون المعجبين وتغلق قلبها دون خفقانه لئلا تتعذب . . ومريم لا تخفي انفصامها حول الحب

والعلاقة العاطفية ، بين تقاليد حملتها من الوسط الغربي من القارة السمراء ، وبين مجتمع حر لا يقيم وزنا لكل ما يكبل انطلاقها ورغبتها في الانعتاق من خوفها . . من الله والأب والكاميرون .

تعني «كاميرون» بلاد الحجارة الكريمة . . وهي الماضي والمستقبل لصبية تبحث عن التميز ، ينتظر والدها المحامي تفوقها ليزين به تاريخ النساء في عائلة الشروة ، بالعلم والمنصب الحكومي الرفيع . . يطرها باتصالاته لعل في أجوبتها ما يطمئنه . أب خائف صيَّر حياتها تقريرا يوميا ، يضخ في عقلها ما يسمعه من الفضائيات الدينية ، يحثها أن تتقوقع وتغلق شرنقتها على تقاليد تربت عليها ، وتعاليم يستقيها من تأويل الدعاة والوعاظ ، فتختار أكثر ، ومريم تحب صديقاتها الأمريكيات ، ومعجبة بثقتهن بأنفسهن ، ودودات ومجدات في الحياة والعلم ، مخلصات ويعرفن الوفاء ، ويفعلن ما يُؤمنُ به بلا رقابة ، وتوقف دور الآباء في حياتهن عند حدود ما يُعْتَبَر حرية شخصية .

تصارع مريم تناقض الثقافتين بينما تعيش مرحلة تشكل الوعي وانتهال العلم في بتسبرغ .

مريم من شرق يلوندي عاصمة الكاميرون ، جدها تاجر من قبيلة زنجية عريقة من مدينة دوالا أكبر مدن الكاميرون ، انتقل إلى العاصمة حين مرق على عادات قبيلته ، وتزوج امرأة غريبة من إثيوبيا ، بهره جمالها ودقة ملامحها وطولها الفارع . . وحملها لمدخل بها بين أهله ، ثم خرج في الصباح بمنديله للوث بدم بكارتها . . فَرِحَت القبيلة

طبولها يوما كاملا ، ظهروا عذرية فتاة غريبة تهامست القريبات عن احتمال فقدانها ، في ماض وعادات وظروف وبلاد بعيدة تركت فيها أسرارها .

وما زال العرف الكاميروني في قرع الطبول صباح ليلة الدخلة ساريا . . ولأن الرجل الكاميروني يقبل الزواج أحيانا بامرأة فقدت بكارتها ، فمهرها أقل ، تُقرع الطبول للمتراوات أكثر وأعلى ، وكلما زادت الشكوك حول فتاة تُقرع طبولها أطول ، ثم يُعرض منديل تَلَوّن بدماء بكارتها على الملأ ، وتُعْلَن براءتُها رسميا .

ونعرف مريم أنهم سيقرعون الطبول أياما لعذريتها ، فهي شابة ، مسلمة ، تغربت وعاشت وحدها في أمريكا ، وستحتاج إثبات براءة وطبول أعلى وأطول مدة ، ولن يحميها أنها في أعلى السلم الاجتماعي ، أو مكانة عائلتها المالية .

انتقلت ملامح جدة مريم العتيقة إلى أولادها ، وحققت غرض زوجها في تحسين نسله . . وحين تزوج أبناؤه من قريبات أمهم اختفت ملامح القبيلة الأصل ، واتسم الجيل الثالث بجمال هجين .

جد مريم تاجر أخشاب يملك عشرات الآلاف من الأفدنة والعاملين فيها ، وهو يرفض احتجاج رجال البيئة إذ يعتدي على عمر وضخامة أشجار غاباته ، يحولها خشبا يزيد ثراءه . وحجته ، للحكومة والناس ، أنه ينفع البلاد ويُشغّل عمالها ، فهو لا يقطع شجرة قبل أن يزرع أخرى ، ويكفي أنه يعيد إلى البيئة توازنها .

يشكل المسلمون في الكاميرون ٦٥٪ بينما المسيحيون ٢٥٪ وباقي الديانات ١٠٪ فقط .

ولد مريم محام وأمها متعلمة لم تعمل بشهادتها الثانوية ، قَبل بعثة لابنته للدراسة في أمريكا رغم تخوفه من مجتمع غريب يدفع إليه ابنته .

التقيت مريم في جامعة شاتام حين شاركت في مؤتمر أدبي مع عشرة من كتاب أمريكا ، منهم روبرت هاس الشاعر والباحث والأكاديمي المرموق ، وكاتب من إسرائيل هو بينر كرول المعروف بدفاعه عن الفلسطينيين ، وهو متزوج من فنانة وكاتبة فلسطينية من عرب إسرائيل .

بعد حلقة نقاش عن الخوف في الأدب ، وهل يشكل عائقا لحرية التعبير ، قدمت لي مريم نفسها بود وإقبال واندفاع .

فاتنة وعيناها محيط من الحيرة والتساؤل .

قلت إنها توافق على أننا في المجتمعات الشرقية والإسلامية نعيش خوفا مستمرا . . من الله والمستقبل والمؤسسات الدينية ، ومن

الرقيب والسلطة الأبوية والاجتماعية .

والرصيفة السفر أمكنة إغواء بالبوح لا تقاوم ، ومفارق الطرق منفضة تطلق فيها أسرارا مشتعلة ، يتحدث غريبان بحميمية توهض وتموت على دروب الفراق .

كنت قد تحدثت عن خوفي وأنا صغيرة ، عن كابوس لم يفارقني حتى توقفت عائلتي عن قضاء الصيف في كرم صغير على مشارف جبل المكبر ومستوطنة رامات راحيل قرب بيت لحم . يهاجم غرباء أشداء لا أستطيع تبين ملامحهم بيتنا ويحاولون اقتحامه ، وأعجز في محاولاتي اليائسة وجزعي عن سد الباب في وجوههم فيغلبونني . . وأصحو صارخة أو مختنقة .

وكان ذلك ردا على سؤال حول أثر الخوف في ما نكتب .

كنا على المنصة ، كاتبتان أمريكيتان ، الشاعرة نعومي شهاب ناي الأمريكية المولد ، والدها مهاجر من القدس ، صحفي ، وأمها أمريكية ، وهي أستاذة جامعية ، وبحب لنعومي ذلك الانتماء العميق والحب الكبير لفلسطين . قولا وشعرا وموقفا . والشاعرة المعروفة كلوديا رانكين ، أمريكية إفريقية وأستاذة جامعية ، وأناهيتا فيروز ، روائية وأستاذة جامعية من أصل إيراني ، والشاعرة البرازيلية أستريد كابرال .

كانت حلقة النقاش عن «الخوف في الأدب» .

وقد يبدو الخوف لا موضوع لمن ولد وعاش في الغرب ، بلاد

الحرية السياسية والجنسية والتأمين الصحي والاجتماعي وفرص التعليم والعمل ، بلاد لا تعرف القبيلة والعشيرة ، ولا يهيمن عليها الفكر الأبوي للمستحدث . . ولكنني دهشت حين لم تشر كلوديا إلى أي خوف من التمييز مع البيض ، قالت إنها لم تجرب الخوف ، وإن فرص التعليم والنجاح والعمل أتيحت أمام اجتهاد فتح لها جميع الأبواب ، كانت أمريكا تواجه محكا لمصداقيتها بعدم التمييز باللون والعرق ، في حملة قسمت العائلة الواحدة حول مرشح الحزب الديمقراطي للرئاسة باراك أوباما . . فهل أسكت كلوديا رانكين يومها فوز أوباما ليصبح المرشح الوحيد للحزب ، فغفرت ما تعلق بالذاكرة من الماضي القريب؟ . . لا أعرف .

أما نعومي شهاب فقالت إنها حين زارت أهلها في القدس ، لم تخف ، بل كانت غاضبة ، وهذا هو شعور كل الفلسطينيين هناك . . مجرد الغضب لا الخوف .

قلت إن الزميلات محظوظات ربما ، فقد ولدن وعشن وكتبن في مجتمعات لا تعرف الرقابة ، وتحترم حرية التعبير حيث لا سقف لها .

أما أنا فعشت في بلاد الرقابة ، الدين والسياسة والمجتمع والعمل ، فكيف أدعي أنني لم أجرب الخوف؟ كيف أدعي أنني لم أصارع الرقيب الداخلي وأحاول تحطيمه في كل مرة أمسك بها القلم؟ لا أنني أعرف أنني حين أتجاوز كل الخطوط قد لا أجد من ينشر مقالاتي ، أو يذيع برنامجي التلفزيونية أو يسمح برواياتي؟

وكثيرة هي مواقف الخوف من عدم إيصال صوتي بالمنع في حياة الكتابة عندي ، ثم في العمل الإذاعي والتلفزيوني ، هواية ومهنة ، امتدت منذ كنت على مقاعد الدراسة الثانوية وما زالت؟

كيف لا يعرف الخوف من يُمْنَع من العمل لأن له فكرا لا يعجب الرقيب أو المخبر؟

أو تُمْنَع عنه جائزة لأن أدبه يتحدث عن الفساد الثوري؟ أو يبقي كتابه سنتين بلا توزيع خوفا على وظيفته أثناء حرب الخليج واحتلال الكويت؟

كيف لم يجرب كاتب عربي الخوف من المنع من العمل والسفر وملاحقة الأولاد «على جريرة فكره وموقفه» في بلاد تحاسب حتى على النيات؟

الخوف شعور إنساني لا نخجل منه ، ولكننا نقاومه لأنه يكبل الكتابة ويعيق التعبير .

هكذا اقتربت مني مريم .

ومريم خائفة . . من العودة إلى الكامبرون ، ومن والدها ، وما تسمعه عن عذاب الخطئين في نار ذات لهب يُصْلَوْن فيها .

ووالدها خائف مثلها . . عليها . . أن يعذب الله ابنته الحبيبة لو زلّت في غربتها دون أن يعرف ، ولكن ربها يومئذ الخبير .

ومريم دائمة الخوف من فقدان صديقة طفولتها وزميلة صباها ، من أهل الفتاة لو علموا ، ومن عذاب الله وحسابه لأنه وحده يعلم .

صديقة وزميلة مريم كاميرونية مسيحية من أصل لبناني- لم ألتق بها لو أعرف اسمها - تعيش في الطرف الغربي للعاصمة ياوندي مركز الأقليات الدينية الكاميرونية ، وأكبرها المسيحية .

قابلت صديقتها في بتسبرغ شابا من الكاميرون فأحبته بجنون ، وانتصر غرام يائس ولهفة عشق محرم على الحذر والخوف ، بدأت تلتقيه في الإجازات الجامعية في الطرف الشرقي من العاصمة ، وتستر عليها صديقاتها المسلمات ، لقاءات تُسرق في غفلة من عيون الأهل وفي غير منطقتهم . . هو حب مرفوض من الأهل ويائس ، تخشاه عائلة الشاب ، وتحذر وحيدها من هوى مدمر ، فأهل الفتاة عرب مسيحيون منصرون ، وهم يهود متعصبون .

تنصح مريم صديقتها بترك حب محكوم بالفشل .

تتوهج العواطف بلوعتها حين تُقهر أو تُضطهد ، وتشتد نيرانها وجفوتها فتحرق أصحابها حين يحتمون بدفئها من أنفسهم ومن حولهم ، يعانقون خوفهم وتحديهم فيشتعل لظاها . . فقدت صديقة مريم عذريتها في عاطفة مشبوبة وشوق في حضن من لهب .

ومريم خائفة أن تخسر صديقة العمر لو افتضح سرها ، فلن تبقى في الكاميرون لحظة سترا للفضيحة محتملة ، وسيبعدها أهلها إلى لبنان لتستعيد «ختم الطهارة» بالجراحة ، ثم تتزوج من قريب لا يعرف ما حدث .

هو تعصب الأقليات حتى في مجتمع تزداد فيه نسبة الزنا ، كما

أعلنت إحصاءات حكومية كاميرونية .

ولا تدري مريم أن الحوادث القليلة عن ترقيع البكارة خلقت شكا وخوفا غير مبرر عند بعض الشباب العربي . . وكثيرة هي القصص المضحكة المبكية عن خوف الشباب العرب من عمليات ترقيع البكارة . . أصر أحدهم على استخراج شهادة طبيب مختص يؤكد فيه أن الختم الطبيعي رباني لا جراحي ، ومثله طبيب متعلم أحضر مصباحا وحاول معرفة إن كانت بكارة عروسه أصلية أم مزيفة ، فمنعته ، وطلبت الطلاق فلن تبدأ حياتها بالشك والتوجس ، وأصر آخر على التأكد بالعين المجردة والعروس ما زالت في ثوبها الأبيض ، وحين اطمئن على أن ختم البضاعة أصلي توكل على الله وأثبت رجولته في اقتحامها ، وتفاجأت العروس عن شكه ، فهو في رأيها معذور ، بعد كل ما سمعه وشاهده على فضائيات الإثارة العربية عن عمليات ترقيع البكارة ، ثم اختلاف الفتاوى الأزهرية حولها بين رافض للخديعة ومؤيد للستر .

نجلس في المقهى فتحدثني مريم عن والد ممزق بين العلم والتقاليد ، يثق بابنته ، ولكنه أسير مجتمع يحاول إعادة النساء إلى الخدر ، والد يسحبه إدمانه على الفضائيات الدينية إلى التعصب والانغلاق ، تثير برامجها هواجسه عن حرية المرأة وانطلاق الغرب ، فيهاتف ابنة يحبها يستنهض فيها امرأة مسلمة مؤمنة لتتلخ عما حولها في مجتمع غريب ،لا يهمه منه سوى العلم والتحصيل . فولكم

دينكم ولي دين» . . يحاول أن يحميها من خوف لا يدريه في مجتمع لا يوافقه على حريته ، وإن أعجب بتقدمه العلمي والتقني ، ويريد لمريم أن تختطف شهادتها الجامعية وتعود إلى الكاميرون نقية كما خرجت منها . . ولا يطامن شكوكه لو يريح وسواسه أن تظل تؤكد له ، أنه لا أحد في الغرب يجبر فتاة على ما لا تريد ، وإن ظل الخطر الوحيد على النساء في كل بقعة من الأرض واحدا ، مغتصب لو متحرش . ويمكن تفاديه بتأمين السكن والتنقل .

تتفهم صديقات مريم الأمريكيات وضعها ، أبي مراظة لي وتقود سيارة الجامعة ، فارعة الطول صاخبة الجمال ، وأخرى من المورمون لم تنطق بكلمة . . ربما احتمت بصمتها خوفا من أسئلة وحديث لا تود . والمورمون فئة دينية في الولايات المتحدة أنشأها (جوزيف سميث) ادعى أن المسيح ظهر له ، ودله على مكان دُفن فيه لوحان ذهبيان نقشت عليهما تعاليم ديانة مسيحية جديدة ، فلم يبحث عنهما ، . ثم جاءه في منام آخر يوحنا المعمدان (النبي يحيى) ، وطلب بالعثور على اللوحين وأكد له مكانهما ، وحثه على استلامهما من ملاك اسمه مورمون يحرسهما ليلا نهارا ليصلا إليه ، ونُقشت عليهما تعاليم الديانة الجديدة . ويعتقد المورمون «نسبة إلى الملاك الحارس» أن سميث عثر على اللوحين وترجمهما ، فتجاوز أتباعه في العالم ستة ملايين شخص ، تركزوا في أمريكا وقليل منهم في أوروبا . . ويختلف المورمون الطوائف المسيحية الكبرى حول مفهوم

الثالوث «الأب والابن والروح القدس» ولهذا لا يعترف بهم الكاثوليك والأرثوذكس والإنجيليون، بل وينكرونهم، ويعتبرونهم أقرب إلى اليهودية وتعاليم التوراة.. ربما لهذا خشيت الشابة من أسئلة قد تحرجها، أو حديث إشكالي لا ترغب فيه عن طقوس طائفتها ومعتقدهم.

تتناول الأيس كريم في مقهى صغير بينما ينهمر المطر الصيفي غزيرا.. مدن تروي السماء زرعها صيفا وشتاء.

الشرح للشابات أهمية العذرية في ثقافة المجتمعات العربية والإسلامية، فالتفريط بها قد يقود إلى جريمة شرف.. كما ظلت تعني الكثير أيضا في مجتمعات الغرب قبل الثورة الصناعية، وحرب عالمية ثانية حررت نساء أوروبا اقتصاديا واجتماعيا، وظهرت الحركات النسوية مطالبة بالمساواة في كل شيء بعد أن خرجت النساء اضطرارا إلى العمل لبناء ما دمرته الحرب، وتعويض غياب الرجال في معاركهم، وأسهم فصل الدين عن السياسة في تحقيق حرية كاملة للمرأة.. قلت إن الغرب لا الشرق هو مخترع حزام العفة. وإن التدخل الأمريكي وانحياز الغرب ضد القضايا العربية، ومطالبته بحرية المرأة للسلطة أدى إلى ربط وضعها بالهوية العربية الإسلامية ومزيد من التشدد والردة في قضاياها وحقوقها.

سألت أيمي إذا كان الوالدان الغربيان يتحدثان مع ابنتهما عن حياتها الجنسية قبل الزواج؟

ووالد أمي يملك مزارع هائلة ، وهو أحد أكبر منتجي الذرة في أمريكا .

فتاة جميلة أسرة بنفتها ، مُبادرة تعرف ما تريد ، وشخصية قيادية لها تأثير واضح على صديقاتها .

قالت حين يعلم الأهل أن لابنتهم «بوي فرند» صديقا ، يصبح التخوف مسكوتا عنه حتى مع الأمهات ، وهم يقدرون أن هذا الأمر قد حدث ، أو ربما في طريقه إلى الحدوث ، ولكن لا أحد يشير إليه ، فحرية الفتاة الشخصية بعد الثامنة عشرة يكفلها القانون ومنها علاقاتها العاطفية ، وقد تشتكي أهلها للسلطات وتطلب حمايتها إن حاولوا إرغامها على شيء لم يعد من حقهم .

وما يخيف مريم هو يقينها أن المقاومة تضعف بالتفرد وبالتمايز عن المجموع والسائد في الفكر الاجتماعي ، خاصة حين يضحي الاختلاف في نظر الآخر تخلفا ونقيصة .

ويؤكد لها والدها كل يوم أن المرأة أساس الخطيئة ، هكذا يقول دعاة الفضائيات وخطباء المساجد ، فهي تجلب الرجل وتغريه بتصرفاتها ولباسها . . وعليها كفتاة صالحة أن لا تتحمل وزر رجل يلقاه في الخطيئة بتبرجها ، لتحتشم في ملابسها حتى في بلاد الأمريكان لتمنع ضعف رجل تغلبه شهوته فيقع في الحرام بسببها .

ومريم تحب الملابس الجميلة ، وتخاف من إغواء نفسها وعذاب القبر ، وتحتار .

ولم تكن تعرف مريم أن الدين حض الرجال على غض البصر .

تكتب «غُضّ البصر» كما تُلفَظ ، بالإنجليزية لتجادل والدها فيها .

كان جرحا عميقا طريا كَشَفَتْهُ أمامنا ، يكسو الغضب والرفض وجهها الجميل وهي تستعيد إهانة لم تستطع ردها ، وجرحا للكرامة والأنوثة في وقفة تعرضت لها في أكبر مجمع تجاري في يلوندي . . فبدأت تتحسب العودة إلى الكاميرون خوفا من تعصب وسلفية لمجتمعها منذ سنوات ، وبعد أن ظل منفتحا قابلا للتعددية نشأت عليها .

يتزايد المتسوقون في أسواق يلوندي وشوارعها قبل مواسم الأعياد وإجازات الجامعات ، دست مريم نقودها في حمالة صدرها وهي ترافق صديقاتها إلى السوق ، فقد اندس في زحمة الأجساد يد ونصل بخفة عجيبة لمزق الجيوب ، وتقطع أصابع تتزين بالحلي ، وانشطب» صدرا أو عنقا لتسرق من عليه سلسلة ، ثم تختفي في تدافع المتسوقين وسرعة عدوها .

دست مريم يدها وسحبت نقودها . . لشاح الخائب بوجهه وتعوذ من الشيطان الرجيم مستغفرا ربه مرات ، ثم رفض لمس نقودها ثمنا لما اشترته ، وطلبها أن تدفع بنقود أخرى أو ترجع ما اختارته ، فلن يلمس نقودا تدنست بجسد امرأة غريبة ، فهو إن فعل فكأنما يلمس المرأة ذاتها ، وهذا خطيئة وحرام .

رفعت مريم صوتها محتجة ، فثار المحاسب هائجا على امرأة تتجاوز حدودها بمهاجمته ، وترفع صوتها العورة على قوامته ، وأصر أنه لن يلمس نقودا سحبتها من صدر مكشوف دست فيه يدها أمام الناس . . وتحلق المشترون وتذمر طابور الدافعين .

تبكي مريم بالقهر والإهانة والعيون تتابعها ، وتقسم إنها كانت تلبس قميصا بأكمام طويلة تصر عليه في أمريكا ، ونصايحت صديقاتها ، حضر مدير المحل ، تناقش مع موظف الصندوق في الحرام والحلال ، هدده بالطرد فترك المحاسب مقعده بلا تردد ، فالجنة خير وأبقى من الدنيا الفانية ، ولن يفيده العمل حين يُصلى بنار جهنم ويُخلّد فيها .

اختار المدير .

جلس مكانه وحاسب مريم على ما اشترت ، والزبائن تراقب بين مؤيد أو رافض . . ودموع قهرها تغطي وجهها .

سألتها : لماذا لم تلق بما انتقته في وجهه وتخرج؟

فاجأ لجرأتها الصغيرة ما نسيته في إحراجها ، وهي لم تعتد بعد ما يعنيه أن يرفض أحدهم مصافحة امرأة أكثر منه علما ومعرفة ، وربما خلقا ، لأنها له مجرد أنثى .

مريم لا تستطيع البقاء والعمل في أمريكا ، سيتحطم قلب والدها ، وقد يؤثر على مستقبل شقيقاتها ، ولا بد لها من زواج كاميروني يثبت عذرية صمدت في الغرب وقاومت انحلاله ، وستقرع الطبول طويلا

بعد ليلة زواجها الأولى لتجلو ما تعلق بغربتها .

قفزت صورة مريم بعد أسبوع من لقائنا ونحن نشارك في ندوة أدبية في نادي الجالية السودانية في مدينة أيوا ، مدينة الثقافة الأمريكية ، أقيمت لتكريم الشاعر الروائي الدكتور طارق الطيب ، السوداني النمساوي ، والروائية المصرية أمينة زيدان ، وشاعرة سودانية أمريكية وأنا .

قلت ردا على سؤال عن أثر الفضائيات العربية إنها عمقت الإحساس الإثني والتقاليد والموروث الثقافي بين المهاجرين . وإن الفتيات يعانين الانفصام بشكل أكثر وضوحا في مجتمعات يختارها الآباء لهجرتهم ، ويتجاذبهن الاختلاف الشديد بين ثقافة بيت وأسرة تستعيد جذورها وهويتها ، ومجتمع ومدرسة ينظران بريبة إلى أفكار المهاجرين حول مفهوم حرية المرأة وحدودها . والمشكلة أن يختار الآباء الهجرة إلى مجتمعات يرفضون ثقافتها ، ثم يفرضون على البنات العيش في محميات ، سياجها عقول وتقاليد وفكر لوطان هاجروا منها لأسباب مختلفة . ويشتد الانفصام والضغوط على بعضهن ، بين تعاليم أمهاتها وإجبارها على التفوق وتخييفها بالعذاب والنار ، وبين سخرية الزملاء في المدارس والجامعات ، والاتهام بعقل متعصب يمتهن المرأة ويتزوج أربعة ويضطهد الحريم .

هذا التمزق بين الآباء والأبناء أدى إلى ١٦٥ جريمة شرف في بريطانيا بين مسلمي باكستان وبنغلادش لحديثا في عام ٢٠٠٦ .

هب أحدهم محتجا بأنه جاء لسماع الشعر والأدب ، وأن ما أقوله «قلة أدب» ويجب أن أعتذر عنه .

ردت الدكتورة خالدة بأن الفكر السلفي ضيّق حياتهم في الأوطان ، وهو يلاحقهم حتى في أمريكا . وقد كثر من جاؤوا إلى بلاد «الكفار» للمحافظة على الجالية المسلمة وبناتها ، وتعزيز الإيمان وضمان عدم تأثره بالفكر الغربي ، وكان هذا أحدهم كما قيل لي .

اعتذر الحاضرون وأسكتوا المتدخل ، فهم يعرفون أن التوازن النفسي لأية ديانة أو مسلمات أو موروث ثقافي واجتماعي يتطلب الكثير من الجهد في مجتمعات الاغتراب وبين الأقليات .

لهذا يعيش المهاجرون في تجمعات يحتمون بها . وكل غريب للغريب نسيب . ليس المسلمون وحدهم بل من كل عرق ودين .

مريم الكاميرونية هي أول ما يقفز إلى الخاطر كلما تذكرت عربيا مهاجرا وأولاده . أو دار الحديث حول احتمال لقاء الشرق والغرب في نظرته إلى النساء ، وأنهما قادران على تجاوز الخصوصية الثقافية والدينية بينهما .

●●●

قالت ربى وسكت الرجال

كانت الحرب الأهلية ، التي استمرت ستة عشر عاما واستباحت كل شيء ، ما تزال تدمر لبنان رغم تكثيف الوساطة العربية لوقف جنونها ، والقوات السورية قد دخلت لبنان بقرار عربي ، وأحكمت حصار العماد ميشال عون في اليرزة وبعبدا من المنطقة الشرقية ، بينما يسيطر ويحكم التحالف السوري مع الحكومة اللبنانية المنطقة الغربية ، وما زالت لشباح من ذُبحوا في مخيمي صبرا وشاتيلا في بيروت تنادي الهامة السقوني دون أن يلتفت إليها أحد .

كان لبنان يُدمّر ويُذبح من اللبنانيين وغيرهم . وأخبار الحرب تتصدر نشرات الأخبار ، وتتدفق من وكالات الأنباء العالمية للصورة .

تسيطر على فكرة أن أصور الحرب وقد بدأت تلوح محاولات جادة لإنهائها .

عرضت الفكرة على مدير تلفزيون قطر حيث أعمل آنذاك ، الإعلامي سعد الرميحي ، فلم يصدق ما قلت ، ولكنني لمحت في تردده إعجابا بالفكرة كسبق إعلامي وإن رفض المخاطرة . كان ذلك صيف عام ١٩٨٩ ولم تكن مُراسلات محطات الأخبار في مناطق

الخطر قد أصبحن مفخرة للفضائيات ، تتسابق على جرأتهن ووعيهن . . بل لم يكن الفضاء العربي الخاص قد ظهر بعد . . كانت السيادة للتلفزيونات الرسمية ، ورؤية دولها تشكل الوعي الجمعي لشعوبها ، وسطوة الرقيب الذاتي لمحرري الأخبار أكثر خطورة من الرقيب الرسمي ، فالأجهزة الأمنية السلطوية ولجان المراقبة تتحكم في كل ما يقال ويبث ، ولا تخلو لجنة مراقبة من شيخ ديني متعصب ، ولم يكن يُسْمَح للبرامج السياسية والدينية أن تبث على الهواء مباشرة ، فأي تجاوز للخطوط ستكلف صاحب البرنامج أو المدير وظيفته أو ما هو أكثر . . وظلت أخبار الحكام وتحركاتهم تتصدر نشرات الأخبار وتلتهم مدتها ، وكل ما يخرج به المشاهد لا يتجاوز «وبحث الزعيمان القضايا المشتركة بما يهم البلدين الشقيقين» .

استسلم للدير حين لم أيأس ، شهر من الإصرار والتأكيد بأنه «لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا» ، وقد تنتهي الحرب وتضيع الفرصة .

واجهتنا مشكلة أن يغامر مخرج وفني صوت بالسفر إلى بيروت في خطر الحرب ومع معدة ومقدمة «بابعتها» .

وجده مصور مصري أبدى استعداده لمغامرة مجنونة بحجم الدخول إلى بيروت ، ولقاء أطراف الشرقية والغربية .

بدأنا رحلتنا من سوريا ، فالطريق إلى لبنان يمر بها ، طريق آخر

وصفه الجنرال عون للسفير القطري ، هو أن نتوجه إلى قبرص ثم ينتقل السفينة إلى المنطقة الشرقية ، وهو سيضمن سلامتنا حين نقترب من منطقته . ولكن الرجل محاصر ، وكثيرا ما تُقْصَف السفن وتعطل حين تجنح في المياه الإقليمية نحو القسم الغربي من بيروت أو يشتد القصف .

اخترنا الطريق الأسلم .

أعلنت السفارة القطرية في دمشق لرحلتنا ، أعطتنا سيارة دبلوماسية وموظف العلاقات العامة والإدارية فيها فايز لمكجي كمرشد ومرافق ، فهو خبير بطريق شَقّ للجيش السوري هو الأسلم ، كما أنه يعرف مداخل بيروت وشوارعها لأنه دائم التردد على لبنان مع السفير .

طُلبت للقاء مدير الإعلام في الطابق العلوي لجريدة البعث السورية . . عبأت استمارة عن أصلي وفصلي ومكان عملي وأسماء جدودي حتى الرابع . . ثم المدة المطلوبة ومن يرافقني .

ما البرنامج المطلوب؟

من أريد لقاءهم؟

ولماذا وكيف فكرت في البرنامج رغم مخاطره؟

طال اللقاء ساعة . . وطلبت منه البقاء أسبوعا في لبنان .

حددوا لنا ثلاثة أيام رغم احتجاجي ، فالأمن لن يتحمل مسؤولية بقائنا في خطر الحرب لسبعة أيام . . فقررنا التحرك فورا إلى

لبنان حين اكتشفنا أن المهلة بدأت منذ لحظة انتهاء الاستجواب .

كانت الثانية عصرا .

سبقنا إلى السيارة شاب نحيل يحمل التصاريح ويلقي بتعليماته ، وعرفنا أنه مرافق من وزارة الإعلام السورية .

صرنا أربعة ، فايز من سفارة قطر ، وعفيفي المصور وموظف الإعلام السوري وأنا .

ويؤكد فايز أن الطريق أمن وسلك فهو متخصص للجيش السوري والدبلوماسيين ، وأنه لا خطر علينا إذا وصلنا بيروت قبل الظلام ، المهم أن نتحرك حالا . . ولم يكن ذلك الطريق قد عرف كثافة رحلات كبار المسئولين وعائلاتهم وأقاربهم وأصحابهم ، وكل من يحصل على إذن للتبضع من بيروت أو من دمشق كما حدث بعد اتفاق الطائف ، وحتى خروج القوات السورية من لبنان ٢٠٠٦ .

تصدمنا حقيقة ما جرى رغم كل ما شاهدنا في الأخبار المصورة .

ثم بخراب كانت عروس المصايف ، تطرزت الجدران بآلاف من ثقوب الرصاص ، ليس فيها سنتمترا واحدا لم تحرقه القذائف بسوادها ، مدن وضيعات اضحت أطلالا ينعق فيها البوم ، وركاما كان يوما قصورا وأسواقا عامرة . . ومصيفا اسمه بحمدون . . صمت مطبق نسي ضحكات الصبايا ومرح الساهرين «وعجقة» السير في أمسيات الصيف تحت «خطيفة» الجبل ، لا صوت سوى توجس الموت ورهبة الحذر . . شوارع احتلها موات الهدوء ويتربص بصرير عجلات نقلنا ،

مدينة لم تكن تعرف سوى الزحام ونبض الحياة هجرتها حتى طيورها ، ومقاه وحوانيت كانت باذخة أضحت بقايا وركاما ، لا صدى ولا حداء من بائعي الفل وعرّافات البخت . . طرقات خالية إلا من وحدتها ، وأطلال فنادق وقصور ضاع منها ألقها ، تبكي عزا مضى ، ورفاهية حياة ، وحفلات لكبار الفنانين العرب .

كان نبض لبنان الساهر صيفا هنا . . فقتلوه .

نتوقف عند قصر الشيخ علي آل ثاني لنصور مِلْكيّة قطرية طالها القصف والنهب .

خلّعوا القرميد والبلاط ومواسير المياه والأبواب والنوافذ وأسلاك الكهرباء ، وتركوا الحجارة .

كان عفيفي يصور القصر من جوانبه ، بينما نتبادل العجب ونحمد الله على سهولة الطريق حتى لحظتها . . وفايز وأنا نسترجع ذكريات وأسماء وأحداثاً ارتبطت بحملون مزدهرة عرفها كلانا .

وفي لحظة أسرع من انتباهنا ، وكصاعقة مدوية هدرت محركات سيارات مندفعة ، وصرت عجلاتها بعنف حين توقفت خلفنا .

لم يعرف أحدنا أو ينتبه كيف ومن أين انطلقت سيارات الجيب تحوطنا ، نبعت من لا مكان وتوقفت وراءنا تماما ، ثلاث سيارات وتطوقنا .

تخرسنا المفاجأة إذ يقفزون منها . . شبان في ثياب مدنية ، صوبوا رشاشاتهم نحونا وأصابعهم على الزناد .

إحداها لقائد المجموعة المسلحة ، سبقه سائقه وفتح له الباب ، واثنان لمرافقيه أو لحراسته .

كانوا جميعا شبابا في الثلاثينات أو دونها .

أجمتنا المفاجأة والرعب ، أنزل المصور كاميراته عن كتفه في فزع ، ويرتجف جسده الضخم ويداه ترتعشان . . وأضاع عقبي فتحي للطة العسر والرشاشات تصوب نحو رؤوسنا .

كانوا خمسة في ثياب مدنية وقائدهم ، شاب وسيم ربع القامة أبيض البشرة ممتلئا . . تفحصنا والسيارة الدبلوماسية . . ثم سألنا في صرامة ، من نحن وماذا نفعل؟ . .

عقد الخوف ألسنة الرجال في هول موقف لا نعرف نهايته . . صمتوا وما زالت الرشاشات قرب رؤوسنا .

ولحظات الحسم دهور . . كان لا بد من التحرك وإلا ضعنا جثثا في مكان مهجور لا يقترب منه إلا مخاطر مثلنا .

ولا أعرف حتى لحظتي هذه كيف طاوعتني قدماي وانفك لساني وأسعفني صوتي .

قلت : إننا من تلفزيون قطر ، ونصور هذا البيت لأنه لقطري .

كأنما أخذ بجراتي في سكوت الآخرين .

تفحصني . . ثم طلب ما يؤكد قولي .

عادت الدماء إلى أوصالنا جميعا حين ابتسم وهو يتفحص جواز سفري ، ثم اكتست ملامحه برد مفاجئ . قال : ولكن هذا مكان

عسكري لا يسمح فيه بالتصوير ، ماذا صورتم؟

لؤكد أننا بالكاد بدأنا بلقطات القصر الفطري حين وصلوا ، وأن المصور لم يستعمل سوى «الزووم» لتدمار القصر ونهبه ، ولم يظهر لا جبل ولا واد .

يستعيد الآخرون رباطة الجأش . . أخرج موظف الإعلام خطابا إلى الأمن السوري يسمح لنا بالتجول والتصوير عدا المواقع العسكرية ، وأوراق سيارة السفارة التي تقلنا .

أشار لمجموعته فأنزلوا رشاشاتهم . . وطلب بحزم لا يقبل مناقشة أن نغادر ، فالقصر في منطقة يحظر فيها التصوير والتجول .

التفت إلي قبل أن يدخل الجيب ، نصحني مبتسما أن نحذر التوقف في أي مكان ، ذلك خطر علينا . وتمنى لنا التوفيق .

كانوا دروزا وكنا في منطقة ميليشيات جنبلاط ، فأنقذنا اسم الأطرش .

ران صمت طويل قبل أن ندخل بيروت ، هو سكوت الرهبة والتفكير بقيمة الحياة بعد النجاة من خطر عظيم ، أو الاقتراب كثيرا من الموت .

كنا جميعا وجلين من مغامرة كادت تودي بنا ونحن لم نبدأ بعد ، وكل يفكر بنفسه وعائلته .

ندخل خرايا كان بيروت .

أنكر مدينة عرفتُها . . نتوجه إلى فندق البريستول ، لم أتبين

ملامحه حين وصلنا ، خنادق ومتاريس رمل ، وقاعات تشكو هول حرب مجنونة جردته من بهائه ، نوافذه ظلت فاتريتات تتباهى ببضائعها فأُغلقت بأكياس الرمل ، وأثاثه الأنيق اختفى واستُبدل بآخر بسيط . ونزلاؤه لا يتجاوزون عدد الأصابع ، بعض سياسيين وموظفون من الأمم المتحدة وصحفيون وموظفو الفندق ونحن .

نطلب ما نأكله .

يأتي بعد طول انتظار . . خبز ولبنة وزيتون وكبيس .

سعدنا في الفندق ثلاثة صحفيين أجانب ، منهم نرويجية اختُطفت ثم أُطلق سراحها ، فظلت في بيروت تتحدى الموت والأسر ، وكان خطف الصحفيين الأجانب موضة يتبادلها الفرقاء المتحاربون في الشرقية والغربية .

حدثتني عن خطفها واتهامها بنقل المعلومات لفصائل الغربية ، وكيف تحررت بالصدفة حين قُصف موقع احتُجزت فيه فهربت . وعن إصرارها على البقاء في بيروت لتنقل جنون الحرب ، ومأساة المخيمات ، فقد جاءت بداية لأجلها ، ثم شغلتها المأساة الأكبر للحرب الأهلية وجنون تفاصيلها فبقيت .

وحده فيو البريستول ظل ملجأ آمنا لكل قاطنيه حين يبدأ القصف .

وفي بهو الفندق رأيت ما لن أنساه أبدا حين حل الظلام وجلسنا مع الصحفية النرويجية ، كأنها هي بطانية صغيرة قاتمة تطير نحونا

ببطء ، فقزت خوفا ثم أدركت ما يحدث . كانت أسراب سوداء من البعوض ترتفع قليلا عن الأرض وتتقدم كغمامة ثم تفرقت بين مقاعدنا وحولها ، لم تحلق منها واحدة مفردة ، كأن الناموس يخشى القصف كالأحياء ، أسراب لا يمكن في كثافتها إلا أن نستسلم للسعها حتى تشبع من دمائنا ، فتريح وتستريح .

عرفت سر البعوض حين مررنا صباحا بسور الجامعة الأمريكية ، رائحة نفاذة وصادمة تفوح من كل صوب كالحذر من الموت المتربص . . كانت أكوام القمامة تتصل بلا فراغ وبارتفاع متر على الأقل ، وتتكون الزبالة على سور الجامعة الأمريكية ، من بداية شارع بلبيس وحتى نهايته ، بلا أكياس أو من يفكر في جمعها .

وشارع الحمراء غانية هرمت وتغضنت بالقصف والسواد والإغلاق ، واختفت خشية أن يرى ما آلت إليه أحد ، كانت المصانع الصغيرة كلها تعمل في أقبية تحت الأرض .

لا أنكر أنني شعرت بالخوف والضعف ومحاسبة الذات على مغامرة اخترتها بنفسي للحظات ، حين دخلت حجرتي لأنام وقطعت ممرا طويلا من غرف بلا صوت أو ساكن . . ونافذتي تطل على شارع هجرته الحياة . وساكن ما حولي في هدوء موحش . . ففكرت بأولادي . . وأنا في وسط مدينة يتطاير الموت في أرجائها ويستهدف من يتحرك . . ولا فرصة للتراجع .

لم يعد لي سوى الصلاة ومناجاة الله والإيمان بالقدر .

نفقو كأهل بيروت على قنص مشفرق . . ونصحو على انفجار شديد قريب في حمام الشط عند صخرة الروشة .

وبيروت مقسمة ، غربية مسلمة في قبضة الحكومة اللبنانية ودعم الأمن السوري ، وشرقية مسيحية محاصرة يحكمها الجنرال عون بعد أن نصّب نفسه رئيسا للبنان .

وحدث بعد زيارتنا للبنان بأشهر ، وتفاديا لاجتياح المنطقة الشرقية والقبض على عون ، ولجنيا لمزيد من الضحايا والدمار في معركة مؤشراتها تؤكد خسارته ، تم ترتيب لجوء العماد مع عائلته إلى السفارة الفرنسية ، وبقي فيها حفاظا على حياته ، ثم نفي إلى باريس . ولكنه عاد إلى لبنان بعد اغتيال رفيق الحريري ٢٠٠٥ ، ثم تصالح مع سوريا وزارها فاستقبل واحتفي به كبطل عام ٢٠٠٨ . . هي السياسة التي يصفها المثل الشعبي «بأنها بلا دين» أي لا ثبات ولا مسلمات .

يفصل بيروت الشرقية عن الغربية معبر التحف . . يفتح بإشراف الأمم المتحدة في ساعات «الرواق» ، ثم يطالله القصف للتبادل من جديد .

وجوه الناس على المعبر بلا تعابير ، حتى وهي تصف لنا معاناتها اليومية وتحكي عن انقسام العائلات الواحدة في شطري بيروت ، وعن

حرب أهلية أنهكتهم وطالت ، وعن خوف يسكن لحظاتهم من قناصة لا يدري الناس من أين ولماذا يقتلونهم ، ويأملون بغير تصديق في لجاج وساطة عربية أو دولية لإنهاء حرب مجنونة طالت كل شيء ، ودمرته .

على أنقاض بيروت ، وفوق دماء ضحايا صبرا وشاتيلا ، وما تبقى من ركام مخيمات شهدت إحدى أفظع جرائم القرن العشرين ، التقيت ربى . .

وتقفز ربى كلما ذُكِرَتْ لبنان .

طفت صورتها على ذكريات كثيرة لي فيه . فهل ما زالت ربى تذكر الحادثة مثلي حين تكلمت وصمت الرجال؟ أم نسيت واقعة الشجاعة تلك؟ كيف لحدثٍ خوفها وانتصرت على ذاتها حين باحت بما تعرف؟ هل أرادت مواجهة نفسها أم الآخرين؟ أن تنتصر على صمت الخوف ، وتنفث قصة تُثْقِل صدرها الصغير وحزنه؟

هل ارتاحت ربى وقد روت ما تعرف أمام كاميرا التلفزيون؟

تقفز تفاصيل الواقعة كلما تذكرت لبنان .

لا يعرف الإنسان حجم طاقاته حتى يواجهها بالتجربة .

ربى فتاة فلسطينية تقذ سيرها إلى الصبا ، ليس فيها ما يميزها إذ وقفت بين أمها وإخوانها الصغار في بلكونة ضيقة من بيت صغير من طابقين عند باب المخيم ، كانت مثلهم تراقب حدثا غير عادي في أيام ليس فيها إلا رعب الحرب وظلالها ، فجاء من يبحث عن المذبحة

ويحاول أن ينبش تفاصيلها بعد سنوات قليلة ، وما زال صراع الفرقاء يشتد ويتشعب .

نقف في باحة ترابية أمام بيت ربى ، سرى نبأ وجود فريق إعلامي عربي يحاول تصوير المخيم من أبواب ونوافذ دورهم المغلقة فبدأ الرجال يتجمعون ، كنا حدثنا في ضراوة حرب لم ترحم صحفيا ، فكيف لمجرؤ أن نقترب من ركام وأطلال تُدفن تحته حقيقة ما جرى؟

هلا جدل فوق رؤوسنا فرأيت ربى . . فتاة أميل للقصر ، ترتدي تنورة زرقاء بنقوش واسعة وقميصا قطنيا أبيض ، تقف في شرفة ضيقة تسلقت فوقها دالية عنب وتعريشة ، صمدت خضرتها في هول ما خَبَرَت ، وأمام البيت الصغير من طابقين باحة ترابية صغيرة تنتهي حدود المخيم . . والرجال يتبعون من الأبواب والأزقة في صمت وتثاقل ، يجرون أقدامهم فيمتص التراب وقع خطاهم ، يتحلقون حولنا كأنما هو مشهد من فيلم جنائزي صامت . . يتابعون جدلا بيني وضباط الأمن ، هم يصرون على إخراجنا من المكان «خوفا علينا» ، وأنا لؤكد انني لن أغادر بيروت ، ولن أتزحزح من مكاني قبل تصوير المخيم ولقاء بعض الناجين . . والرجال يتكاثرون حولنا في تثاقل ، يجرون أقدامهم في ثبات مطاطية ، وبعضهم يرتدي ثياب النوم ، وتغطو وجوههم من تعابير .

لن تفارقني عيونهم أبدا .

لحجرت للقي على نظرات زجاجية لا ترى ، لا دهشة أو استغرابا

لو تجاوبا ، عيون تنتظر القادم في استسلام وحيادية ، فلن يتجاوز الأتي- مهما قسا- هول وسواد ليل المذبحة .

يتوافد رجال من أزقة متعددة ، ملامحهم كعيونهم تجمدت على لا خواطر . . ضاع الإحساس حتى عدم الاكتراث أو الفضول ، ونيبت على لا مشاعر .

بتدبير زحفهم البطيء فيشكل دائرة حولنا . . المصور عفيفي فتحي واثنان من ضباط الأمن السوري في ملابس مدنية ، والمرافق وفايز وأنا . وعفيفي ضخم الجثة تقبل الحركة كثير الكلام عادة ، ولكن الخوف دفعه إلى سرعة غير معتادة ، وصمت لم يعرف فضائله من قبل . جعل منه التوجس مهنيا لم أعهده فيه . . تغير بعد أن أنقذنا قدرنا من موت محقق مرتين منذ دخلنا لبنان ، في بحمدون ، ثم في اليوم الثاني قبل توجهنا إلى المخيم . . قُصِفَ الطابق العلوي من مستشفى البربير المطل على معبر المتحف . . سقطت قذيفة في المكان نفسه تماما حيث كنا نضع الكاميرا ونجري لقاء مع مدير المستشفى بعد خروجنا من الطابق بدقائق لم تزد على خمسة . فاتصلت إدارة المستشفى تطلب أن نعود لتصور المكتب المُدمَّر ومعجزة نجاتنا بفارق دقائق .

أدرك عفيفي أننا في حرب حقيقية لا نزهة ، وأن البطء قد يكلفنا حياتنا .

كانت ربى تجادل أمها في شرفة المنزل الصغير عند باب المخيم بينما يتدافع أطفال ونساء فيلتفون حولنا . والصمت مريب . . حتى

الصغار بهتت عيونهم وأطفأها حزنها . . وأهيب بهم أن يستذكروا ليلة المذبحة فإذ هم (صم بكم لا يفقهون) صمم جماعي لا يلتفت لرجائي بأن يفتحوا قمقم الخوف فلا يأبهون ، كأنما هم من أهل الكهف جاء من يوقظهم من سبات القرون ، لا اكتراث أو رغبة ستخرجهم من عالم غاص في دواخلهم حتى موات الحياة .

والصحوة ذكرى . .

والخوف رباط للألسن .

ينقلون أبصارهم بيني ورجال الأمن السوري فتأكدت أنهم يعرفونهم . . وحين ذهب الضباط لأخذ موافقة المسؤول على دخولنا المخيم ، اكتشفت أن للأمن السوري مركزا لحراسته ، وعلى بعد خطوات منا فقط ، وعند أول شارع يقطعه . .

ظلت نظرات الرجال الحجرية تتفحص وتتابع وجوه الأمن وتصمت .

يتعاظم يأسي وهم ينظرون فلا يرون ، ويسمعون ولا يردون .

كأنني أصرخ في البرية . . يضيع توسلي أن يخرج أحدهم عن الصمت ويتكلم .

بحيادية قاتلة يتفرجون . . وأنا أسابق الوقت وألح وأؤكد لهم أنني منكم ، وأريد أن أسجل شهادة للتاريخ .

هل أشفقت ربي على خيبتي أم هو القهر من صمت الرجال وخوفهم؟

لم يكن في وجه ربى ما ينبئ بغير العادي ، أو احتمال أن تأتي بما لا يُتوقَّع منها . . شابة مراهقة لا تزيد على ستة عشر عاما ، أميل للقصر ، ثيابها بسيطة ، وبشرتها حنطية . وشعرها أكرت ربطته إلى الوراء في إهمال باد . انتصر الخوف على أيامها وأنوثة تكبر ، وأنسى الصبية مرآة تختفي بنضوج جسدها وبراعم جماله .

تحاول أمها ردها عما تعتزم وتمسك بها فتتملص من ذراعيها ، وفهمت من تناثر كلماتها أنها تريد النزول إلينا ، وأمها تهمس بما لا تقبله الصبية ، وحين التقت نظراتنا ، لوحت بيدها وصاحت «أنا بنزل وبحكي اللي شفته وما بخلف من حداه» .

تتجمدني ، وإن لم يحرك ما ستقوله ربى حجر العيون ، وتصلب المآقي ، وانطلق اللسان رجال أخرسها خوفها .

تَزَلَّتْ ، أمسكت ربى المكرفون فالتمعت عيناها ببريق التحدي والعزم ، وجهها طفل امتلأ بسمة المراهقة ودهونها ، وضاقت عينان صغيرتان سوداوان تنسجمان مع ملامح دقيقة . . وكل ما في ربى يعكس عدم اكتراث بأنوثة تنضج في حرب مجنونة ، وموت يتطاير من كل الزوايا .

تستحضر ربى تفاصيل ليلة المذبحة فتسابق رؤاها كلماتها .

أغلق والداها الباب والنوافذ دون صراخ نساء وأطفال ورجال مذعور ، يعلو قريبا رهيبا ، يستغيثون باكين ، ويطلبون الرحمة ثم يشهقون ، وتتدافع طلقات الرشاشات تخرس الرجاء ، وخطوات

تركض حائرة ، وصرخات ألم الموت بلا رصاص تشق سماء لا تسمع ، ويرتطم ثقل الأجساد ويتعاظم صراخ الموت بسلاح لا صوت له ، وشتائم وطلقات ، وأبواب تُغلق ثم تُحطَّمْ ، وأنوار تكشف جحيم المكان .

يحتضن والد ربى عائلته في زاوية الغرفة ويناجي ربه في صمت . . تسلل حافيا زاحفا فوق البلاط فأزاح طرف الستارة ، ويهمس برعب بأن مسلحين يدقون باب الخيم ويقتلون من يحاول النجاة بالسلاح الأبيض ، وجثث تتكدس ، وصراخ يصم الآذان ، وعويل واستجداء للرحمة والحياة ، وشتائم وانتقام . . ثم أرجل تسير مبتعدة تبعثر التهديد وتزهو بالانتقام ، تبتعد قليلا ثم تهتز الأرض . . تتوقف سيارات جيب مسرعة فتنصر عجلاتها ، يقفز منها آخرون مدججون بالسلاح وتبدأ جولة قتل جديدة .

سمعت ربى خطوات القاتلين وأصواتهم وبعض ما يقولون ، كانوا عند باب الخيم على بعد أمتار قليلة من بيتها . . انهمر الرصاص متصلا من جديد ، شتائم وتأكيد أن أهل الخيم يدفعون ثمن اغتيال بشير الجميل ، وسباب لم يترك أختا أو أما أو دينا . . ابتعد الرجال وهم يطلقون الرصاص على كل شيء . . وأفرغوا ما تبقى من ذخيرة على بيوت لجأوا الخيم ، تهاوى والد ربى وظن أنهم قادمون ، جرته زوجته بعيدا عن الشرفة ، واحتضنت أولادها في رعب وانتظار للموت . . ساد هدوء طويل إلا من بعض أنين خافت توقف . . ثم امتد

صمت مطبق إلى ظهر اليوم التالي .

كشف النهار بشاعة الجريمة . . تعالى النواح والصراخ المفجوع . . استعملوا السلاح الأبيض أكثر من الرصاص لإبادة الخيم .

وربى في الشرفة وهم ينقلون الجثث فلا تحتمل ما ترى .

تستجمع الشابة ما رأت ، تغتسل من رعبها وبشاعة ما اختزنته ذاكرتها ، تنفث ثقلا تحمله أكبر من سنواتها فتقول : جاء الأقارب يتفقدون أهلهم ثم تداعى المصورون والصحفيون وسيارات الإسعاف ، وكانت رائحة الموت وتعفن الأجساد والدماء لا يُحْتَمل ، ولم نستطع فتح النوافذ لأيام طويلة » .

فهل أرادت ربى وهي تتسلم خيوط مجزرة فاجعة فتتدافع كلماتها تسابق بشاعة الصور ، أن تغتسل بالاعتراف؟ بأن والدها سقط مغشيا عليه؟ وأنهم كالآخرين خارج الخيم سمعوا استغاثة من يذبحون فاختبأوا بخوفهم وصمتهم؟ أم أرادت أن تتطهر بالاعتراف لأنها وطوال تلك السنوات ، كانت مثل مخيمها خرساء بالخوف تعرف وتسكت ؟

هل ثارت الصبية على ضعفها وحدها ، أم على صمت رجال يعرفون فلا يجرؤون؟ .

قالت بتحد لتفضح من حولها بأن لا أحد من هؤلاء الناس يخرج بعد العشاء أو يقترب من الخيم ، لأن أرواح الضحايا تهوّم في خرابه ، تستغيث وتريد أن تنتقم ، وهي تشكو إلى ربها قسوة الإنسان؟

فهل أراح ربى اعترافها؟

فلم أبك ليلة المذبحة » . . تقول ربى .

ولم تكن تعرف أن الأهوال تجفف الدموع .

لكنها مثل كل من نجوا حول المخيم لا تظل من الشرفة ليلا ، فالأرواح تتجول وتصرخ وتوقظها من نومها .

ولا تعرف ربى أنها كوابيس لجريمتها السوداء .

تتابع ربى عيون الرجال بينما الكاميرا تصور وجوها لا يهزها حتى استرجاع مذبحة ، تبلدت الأحاسيس بالخوف ، وانتظار قادم لن يحمل هولا بحجم ما مضى . . فلا شيء يقسو كتوحش الغل في ليل الانتقام والقتل .

هكذا تحدث ربى خوفها ووجود الأمن بالحديث عن حرب المخيمات ، كان الرجال يعرفون أن أحد أركان المذبحة في حماية الأمن السوري ، فالتحالفات السياسية تتقلب وتختلف ، ونبش الماضي قد يقود إلى ملابسات كثيرة منها تل الزعتر .

تقفز ربى إلى خاطري ، ساطعة الحضور كلما ذكرت صبرا وشاتيلا أو حرب لبنان . . أمثلها بثوبها البسيط وجدائلها القصير المسترسل وأنا أقرأ عن كتاب لصحفي فرنسي أرخ فيه للحرب الأهلية وحرب المخيمات ، وصدر بعد عشرين عاما من مذبحة صبرا وشاتيلا ، واستند إلى شهادات ووثائق توصل منها إلى أن جبهات عدة اشتركت في جريمة القرن العشرين .

لم تكن شاهدة العيان ربى ، تحتاج لسنوات من فحص الأسلحة

وجمع الشهادات والتدقيق في صور الجثث وأخبار الوكالات المصورة ، لتؤكد أن إسرائيل لم تكن وحدها في جريمة العصر ، بل أطراف ثلاثة ولغت في دم الأبرياء ، وبأسلحة مختلفة ولأهداف متباينة . . وأكد الصحفي ما قال مشيرا إلى الميليشيات بأسمائها وأصحابها وكلها اجتمعت على ذبح الفيم . قتل الإسرائيليون أفرادا تابعين لمنظمة التحرير والفصائل الفلسطينية ، وأجهزت القوات اللبنانية بقيادة إيلي حبيقة ثم جيش سعد حداد على من تبقى من رجال وأطفال ، وذكرهم الصحفي الفرنسي بالاسم .

وربى شاهد عيان ، عرفت هذا بلا وثائق أو استقصاء ، وسجلته معنا بطريقة عفوية ، كانت تصرخ وتؤكد بأن أطرافا اشتركت في الجريمة ، وأن الذبح كان على دفعات متلاحقة ، وأن الموت كان يأتي أسرابا ، وتواطأت جبهات لإبادة المخيمات .

هذه المعرفة هي التي أخرست الرجال ، فأحد أعمدة الجريمة إيلي حبيقة كان حينها في حمى الجيش السوري ، فعدو الأمس في السياسة صار حليف اليوم .

تقول ربى إنهم كانوا يتكلمون بلهجات مختلفة ، وبعضهم بالعبرية .

أصر على تصوير المخيم ، يرفض الأمن ، يتشاورون طويلا ثم يشترطون أن تقطعه بالسيارة ذهابا وإيابا لمرة واحدة ، وبدون توقف .

يعمل عفيفي بسرعة ، أسنده إذ يطل بنصفه من نافذة السيارة .

تلتقط الكاميرا مأساة الخيم ومنظرا لا ينسى ، كهلا بين الخراب وحده ، هذه ما خبرته عيناه فلم يعد يعنيه ما حوله ، كان مرورنا حدثا لهم جميعا إلا هو ، لم يرفع عينيه وهو يعد نقوده القليلة حتى وأنا أصرخ «صوره صوره» . . يلتقط ما تبقى من غرفة كانت منزله ، زاوية من نصف سقف تعلق على جدار كامل ، يصعد إليها بدرجتين ، ولا باب أو جدران ، يجلس على أرضية خالية إلا منه ، ويفرد على صفحة جريدة قديمة أكياسا صغيرة من الملبس والحلوى يبيعها للصغار ، ويدقق في قطع نقدية معدنية حصيلة يومه ، يلبس معطفا قديما في حر بيروت ، ولم يرفع رأسه عما يفعل . . كانت قنوات الجاري مكشوفة أمامه طالها القصف والدمار ، فتناثر قذارتها ومياهها العفنة وتقلفها فتصله في اندفاع العجلات فوقها ، لا يدري أو يرفع بصره . . لا شيء يعنيه ، كأنما انتزع نفسه وحده . . سحب ذاته إلى عالم لا يعرفه سواه ، وإلى قصة لم تعد تهم غيره ، شارد عما حوله من ركام ودمار وقصة مدفونة فيه ، كأنما ينتظر موتا أخطأ حين نسيه تلك الليلة . . وتركه وحيدا .

(آه يا وحدي) .

رتبت لي فوات الأمن السوري لقاء مع حبيبة دون علمي ، كان قد انشق عن الكتائب ، وفي حرب بيروت لا ثبات ، مسيحيون يقاتلون مسيحيين . وطوائف المسلمين تتحارب وتتنازع ، وميليشيات تنقسم وتتحالف . . ولكن تصريحه لنا لأول مرة بأنه تلقى التدريب

في إسرائيل مع لشبال الكتائب ، وحديثه عن علاقة حزبه التاريخية مع إسرائيل كان ضربة إعلامية حينها . وحين سألته عن صبرا وشاتيلا قال إنه «لم يشترك بها بنفسه ولا يعرف إن كانت عناصر ميليشيات أخرى قد اشتركت» .

سجلنا اللقاء في شقته الأنيقة . واسعة تطل مكاتب الأمن السوري وتطل على البحر ، قدمت خادمة فلبينية شراب الليمون في أكواب كريستال على صينية من الفضة ، وكل ما حولنا يتم عن ذوق رفيع ، يتناثر حرسه الخاص داخل الشقة وخارجها ، فتشوا أجسادنا بجهاز ودققوا آلاتنا وما نحمل .

ثم جاء . . لطيفا وجوادا في تعامله واستقباله ومهذبا ، فكيف أمكن لشاب مثله أن يمضي في القتل والتدمير والولوغ في الدم؟ .

هو جنون حرب أفقدت كل الأطراف صوابها فأغرقوا البلد الجميل بالدم والدمار .

سجلت لقاء مع حليف آخر لسوريا هو عاصم قانصوه ، أخذوني إلى بيته عند العاشرة ليلا . . تحدث عن الدور السوري في حفظ الأمن وحياة اللبنانيين ، وسألني عما أنجزته ، قلت إنني أتمنى الوصول إلى بعض المتحاربين في خنادقهم ، ولكن الأمن يرفض خوفا علينا ، ومهمتي ستنتهي في الغد دون أن أعرف كيف التقي مع عناصر من الميليشيات والمتحاربين .

ولم أصدق أنه حقق وعده .

صحبنا سائقه في الصباح وبجيبه الخاص وفي حراسة مرافقيه فنقلنا إلى خطوط التماس . . قابلت ميليشيات في خرائب كانت يوما بيوتا ، يقاتلون من خنادق عميقة لبنانيا آخر يعتبرونه عدوا ، ويتربصون به .

شعور عجيب حين بدأ قصف قصير بين المتقاتلين ونحن في الخندق ، لم أفكر بالموت ، بل بالحياة ، أن أدهش المشاهد بصوت النار ونحن نركض إلى الخندق .

وبيروت غير ما عرفت .

قناصة لا يُخمّن أحد أين يكمنون أو متى ولماذا يقتلون . ومتاريس متصلة لا تتبين معها ملامح أمكنة تعرفها . .

ذيل نخيل الكورنيش وتهدلت سعفه ، يابسة عطشى للماء والحياة ، وعمارات رأس بيروت مهدمة بهدلتها الحرب وقد ظلت تفاخر بأناقتها ، استبدلوا زجاج نوافذها المهشم بالورق والبطانيات ، وعلى شرفاتها تتكوم وتتسلى حبال غسيل المهجرين من الجنوب احتلوها وسكنوها .

قلة من مطاعم الروشة ما زالت تعمل ، تلك التي لم تعرف إلا نخب بيروت وأفواج زوارها والعشاء على الشموع ، سترت أبوابها بمتاريس الرمل . . زبائن مشاغبون ، عسكر وصحفيون ودبلوماسيون يتناثرون في اتساعها ، وصخرة الروشة من وراء زجاج المطعم ضاع ألفها . تفقد الأماكن هيبتها في الحروب كما البشر ، كبالون الصخرة

إذ تتبادل شكوى التدمير والقتل مع كل ما حولها .

تتصل أكياس الرمل غطت مدخل السفارة القطرية مع متاريس مجلس النواب .

تدخل الأولى والثاني ، كلاهما تكتة تحيطها الحراسة والترقب والخوف وتحتمي بأكياس الرمل .

أقابل حسين الحسيني رئيس مجلس النواب انذاك ، وحوله تكتة من الجنود تحرس المكان .

لا جديد عند الرجل سوى الأمل في اتفاق لبناني برعاية عربية ، وقد بدأت تكهنات حوله تتسرب في دوي القصف وجنون الحرب .

أكتشف أن ملابسي اتسخت بالعرق ومكياج ساح في حر بيروت ورطوبتها ، وانقطاع الكهرباء ، وغبار دمار لا يتوقف .

أخرج .

أنتقل لأقابل رئيس الوزراء الدكتور سليم الحص في مكتبه .

رئاسة الوزراء تكتة حجبت ملامحها المتاريس الرملية والقواطع ككل بناية غيرها . . ويضيع بهاء ساحتها ومدخلها بتعرجات مرورية تحسبا لهجوم محتمل . أكياس وجنود ومراجعون ، كل في عجلة فلا لمان في أي مكان . . وجميع أبنية بيروت الرسمية خنادق عسكرية .

قاعة الانتظار في مكتب رئيس الوزراء تعج بالصحفيين المحليين والأجانب .

مديرة مكتبه هي ابنته الوحيدة .

وأنا كنت وما زلت معجبة بفكر هذا الرجل ، وازددت إعجابا بإنسانيته ووفائه لزوجة أحبها وأخلص لها ، حتى بعد أن خطفها الموت .

نظرات ريبة تلاحقنا لأننا نرافق الأمن السوري وفي حسابهم ، وندخل على رئيس الوزراء بلا انتظار بينما يتحرق الآخرون للدقائق من وقته . ولم يعرفوا أننا سابق الزمن المحدد ، وأن الأمن يود التخلص من مسؤوليتنا ليستريح .

هَرِمَتْ بيروت بحزنها فضاع بهاؤها وألقها .

نصور بعض الجنود السوريين بالبيريه الحمراء . بصادر الأمن الشريط ، «فليس مسموحا تصوير أهداف عسكرية» . . يطمئنني عفيفي أنه أخذ لقطتين أو ثلاثا لعساكر سوريا في مناطق متفرقة . . وقد أعدنا تلك اللقطات في المونتاج مرات عديدة ، وكلما تحدثنا عن الوجود السوري في لبنان .

مر بمنطقة الفنادق ومسابحها الشهيرة ، ظل بهاء الفينيسيا وفان جوخ أبرز معالم المدينة فإذا هي خرائب وركام ، وكان على فايز الكجي وهو يقود السيارة أن يقطع بنا الكورنيش بأقصى سرعة ، والضابط السوري يطل ويسد النافذة من ناحيتي خوف رصاصة لن ترحم . . فهياكل الفنادق ظلت المكان الأثير لقناص يقتل كل من لا يعرف ويتحرك في المدى .

لا يمكن وصف الدمار في بيروت وأثره على جدران كانت بيوتا ،

ضاعت ساحتها الشهيرة وأسواقها وصارت ركاما . . . ويستعصي فهم قتال أهلي لم يرحم بشرا أو حجرا ، الطوائف والمذاهب تتصارع فيما بينها ومع الآخرين . . ولبنان يقتل نفسه .

عُرِضَ البرنامج في قطر فثار اللبنانيون في الدوحة .

طلب السفير اللبناني آنذاك مقابلة الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني وكان وليا للعهد ، وقدم عريضة شكوى رسمية ضدي باسمه ونيابة عن الجالية اللبنانية في قطر لأن البرنامج يزيد الشقاق بين المسيحيين والمسلمين ، بينما تدور محاولات لتصفية الأجواء «اتفاق الطائف» ، وأنني كنت متحيزة تماما ضد المسيحيين ، والجالية اللبنانية غاضبة بطائفتيها لأن البرنامج يؤلب الأطراف ، ويعتقد المسيحيون أنني لم أذهب إلى الشرقية متعمدة حتى أتبنى وجهة نظر الغربية المسلمة ، وأنه باسم الجالية يطالب بعقابي ومحاسبتي والتحقيق معي ، فالبرنامج مؤيد لطرف واحد مما يتنافى مع سياسة قطر المعتدلة .

ولم يُحَقَّقْ معي .

ولكن تطلب الأمر كثيرا من الوقت والشرح لبعضهم أصدقائي اللبنانيون أنني لم أكن متعصبة ضد أحد أو متحيزة أبدا ، ولكنني وضعت حالهم أمامهم فرفضوا تصديقه ، واستنكروا بشاعة وهول ما سمع به اللبنانيون على أرضهم ، كرهوا صورة سوداء لما اقترفوه وغيرهم من ذنب في حق وطن صغير جميل .

●●●

ابنة السماء.. جميلة

قسما بالنازلات الماحقات
والدماء الزاكيات الطاهرات
والبنود اللامعات الخافقات
نحن ثرنا فحياة أو ممات
وعقدنا العزم أن نحيا الجزائر
فاشهدوا . . . فاشهدوا . . . فاشهدوا!!

أردد نشيدا رائعا سيطر على الفكر والروح طوال رحلة العائرة من مطار شارل ديغول الفرنسي وحتى الجزائر العاصمة ، تلك كلمات العنفوان طرزت مشاعر الطفولة والمراهقة ثم تفتح الوعي . لحن رائع وضعه العبقري محمد فوزي صاحب أشهر أغاني الأطفال العربية ، «ذهب الليل طلع الفجر» ، «ماما زمانها جيه» . . هو تنوع وقدرة موهبة فنية فذة .

وأنا من جيل تربى على عشق الجزائر ، وتغنى بثورة المليون شهيد قبل أن تعلن الجزائر أن ترابها ارتوى بدم مليون ونصف ، لم يهدأوا حتى تحرروا .

عَشِقْتُ الجزائر ثورة في إذاعة صوت العرب ، وشعرا وأغنية وفيلما ، وكتبت مواضيع الإنشاء عن بطولاتها طالبة في الإعدادية ، وتبرعت بمصروفي للفصيل مع زميلات الدراسة لثورتها ، وبكيت بحرقة لتعذيب بطلتها جميلة بوحيرد في فيلم يوسف شاهين ، وصرخت مثلهن كلنا جميلة كلنا فدائها ، ثم خرجت مع مدرستي ابتهاجا بإعلان استقلالها .

هي الجزائر في الوجدان والخاطر .

كانت زيارتي الأولى لأرض الأبطال والتراب المروي بالدم بداية الثمانينات ، أراد التلفزيون القطري تقديم أفلام وثائقية عن الدول العربية ، وفرحت لأن حصتي ، الجزائر والمغرب وموريتانيا .

هي الجزائر إذنا

هل جئت أبحث عن الجزائر كما تتشكل وتصير ، أم عن حب لا محدود وإعجاب يتغاضى حتى عن البادي للعيان؟

أتتقيها بكل صور الحب والإكبار والبطولة المسيطرة ، فغفلت عيناي عما يتغير فيها ، وعن إرهاصات الآتي في إعادة التأهيل بعد الاستقلال .

كنت أبحث مع قلبي عن رموز تعلقنا بها ، قرأتها باستدلال عاطفة تقدر وتغفر وتتسامح .

جئت أبحث عن جميلة بوحيرد وأحمد بن بيللا وحي القصبة وبناء الشهداء على جبال الأوراس والأطلسي .

كنت أعرف أن جميلة بوحيرد تزوجت محاميها الفرنسي ، وأن أحمد بن بيللا عضو جبهة التحرير الجزائرية وأول رئيس للجزائر سجن ، ثم فرضت عليه إقامة جبرية في منزله ، وتزوج امرأة قبلت أن تقيم معه في بيت لا يخرجان منه ، وأن هواري بومدين مرض ومات ، وتهامس بعضهم عن ظروف غامضة لوفاته كما يحدث عادة عند وفاة زعيم ثورة يختلف مع رفاقه ، وأن الرئيس الحالي هو الشاذلي بن جديد .

رغم ما أعرف بدأت أبحث عن جزائر حلمي أنا ، عن أبطال سكنوا وجداني بغض النظر عما تغير فيهم وحولهم .

يؤطر جبروت النوستالجيا واحتلالها رؤيتي . . يحجب الضبابي ويدفعني إلى المشرق فيها .

طلبت لقاء جميلة بوحيرد . . وزيارة منزل أقام فيه أحمد بن بيللا جيريا .

كنت ابحث عن جزائر الخاطر بعين الحب بينما جزائر الواقع تعاني مخاضها العسير . . وبناء الدول أكثر صعوبة من معارك التحرير ، ولم أدرس تحديا من قتال الثوار في غابات وجبال قهرت طبيعتها وإرادتهم جيوش الفرنسيين .

وساحرة هي الجزائر ، يمتد ساحلها ليكون الأطول بين دول الشمال الإفريقي (١٢٠٠ كيلومتر) ، تتبع جبال الأطلسي من رماله ، تتسامق وتطاول زرقة السماء ، سلاسل خضراء ترتفع كهامات رجالها

شامخة بالاعتزاز بهويتهم ، ومثلها جبال الأوراس معقل الثوار ، جبال صخرية شاهقة بتنوع مناخها كأصقاع الجزائر ، حر وثلج ، قفار وغابات ، صخور وتراب ، ومن خلفها وجنوبها صحراء رمالها تبر تمتد ، تتناثر فيها واحات رسمت جمالها الأخاذ يد خالق فنان . . بلاد تأسر ألوانها القلوب ، وتفسر إصرار فرنسا على احتلالها واعتبارها ولاية منها .

حين زرت الجزائر بعد ذلك مرات ، كنت أكثر واقعية في رؤيتي لمعاناتها وإن بقيت متيمة بها .

جمال الجزائر وغنى طبيعتها كان وبالا عليها كما في بلدان كثيرة .

أثرت استغراب من حولي وخوفهم واستهجانهم وأنا أسأل وأبحث عن أبطال لا يريد أحد أن يفتح الجدل حولهم .

رتبوا لي زيارة «قصر» أحمد بن بيللا أول رئيس جزائري بعد الاستقلال عام ١٩٦٢ ، بطل رياضي ، ولاعب محترف في كرة القدم ، لعب مع فريق مرسيليا الفرنسي الأقوى على مستوى أوروبا آنذاك ، ثم بطلا متوجا في الركض لمسافة ٤٠٠ متر ، شاب وسيم متدين انضم إلى جبهة التحرير والاستقلال ، فصار زعيما سياسيا ورمزا لتحرير الجزائر .

تنطلق السيارة ربوة خضراء ، تلتف وتقف أمام بيت عادي على سفحها ، قديم ، عُلّقت عليه يافطة «الاتحاد النسائي الجزائري» .

أمشي ودهشتي على مر حجري موصوف بين ورود وأشجار مثمرة .

هو بيت لأمه احتجز فيه أحمد بن بيللا قبل أن ينفى إلى فرنسا ، وبعد أن أطاح به الكولونيل هواري بومدين ، صديق عسكري جنده في الثورة وجبهة التحرير الوطني الجزائري حين كانا في مصر ، أحمد بن بيللا لدعم ثورته من الرئيس عبد الناصر ، وقد ساندها ماديا وعسكريا وإعلاميا ثم بفيلم جميلة بوحيرد ، فهب العالم العربي متعاطفا فتحورا بكفاح وعنفوان عربي لا يستكين حتى يتحرر . . بينما العسكري هواري بومدين طلبا مبتعثا إلى جامعة الأزهر ، فتعرف إليه أحمد بن بيللا ، وأقنعه بالانضمام إلى ثورة التحرير .

كنت أصر على الماضي ، وكانوا صبورين وإن أظهروا بعض تبرم مهذب . وحين تكون شابا لا توازن كثيرا أخطار ما تقول أو تفعل .

لم ألتفت كثيرا إلى ضيق الجزائريين بتكريس «المشرقيين» لبطلة وحيدة في ثورتهم هي جميلة بوحيرد ، فجميلة ابنة شعب سقط منه مليون ونصف المليون شهيد ، وهي فرد من شعب كله جاهد وناضل وكافح وهذب وانتصر . . شعب كله بطل . . وصنعت جميلة الجزائريين حين تزوجت محاميها الفرنسي بعد استقلالهم مباشرة ، ودماء الثوار ما زالت طرية ، ومن اختارته وأحبته البطلة فرنسي من دولة محتلة ، ولا يشفع لقرارها كل مواقفه وما فعل . . . محام شاب اشتراكي ليبرالي دخل إلى قاعة المحكمة صارخا أنها ليست وحدها ،

فكل أحرار العالم معها وشعبها ، وترافع عنها ومنع حكما بإعدامها ، ودعم الثورة ومطالبها ، وناوأ حكومته ووقف ضدها ، وتظاهر رافضا استمرار احتلال فرنسا مطالبا باستقلال الجزائر ، ومثله فعل كثير من مفكري فرنسا الليبراليين ، كل هذا صحيح ويقدره شعبها . . لكنهم استنكروا أن تتزوجه بطلتهم ورمز ثورتهم ، فهو فرنسي ومن دولة احتلال سفكت دماء أبناء وطنها وملتها!! . كتب بعضهم رافضا ما اختارت جميلة . ثم رسمت جريدة «الأحرار» الجزائرية كاريكاتيرا ليوجيرد وهي حامل ، وفي بطنها جنين بلباس برتيطة فرنسية ، فثارت جميلة لإنكار نضجها والتشكيك بإخلاصها والتدخل في حياتها ، وخاصمت الصحافة ، وما زالت تتوجس منها حتى يومنا هذا .

كانت رئيسة الاتحاد النسائي في انتظاري ، تتكلم العربية الفصحى بطلاقة بادية . . وفُرِضَت العربية لغة رسمية وحيدة للجزائر المحررة منذ عام ١٩٨٠ ، إثر حركة تعريب بدأت مباشرة بعد الاستقلال ، وساهم فيها مدرسون من أنحاء الوطن العربي . والتعريب معركة حقيقية للأمة خاضتها الجزائر ، فالشعب ، المتعلم منه قبل الأمي ، لا يعرف العربية إلا نادرا ، فقد فرض الاحتلال «الفرنسية» لغة رسمية وحيدة لأكثر من قرن ، في الدواوين والمدارس والمحاكم . . وكتب كبار الأدباء الجزائريين وروادهم إبداعهم بالفرنسية فلم يصل العالم العربي إلا مترجما ، وقد ترجمت ونشرت حكومة الجزائر بمناسبة احتفالها بالجزائر عاصمة للثقافة العربية ٢٠٠٧ إبداع أدبائها

من كتبوا بالفرنسية ، ليتعرف أبناء شعبهم على إنتاجهم الأدبي ، ومنهم أسيا جبار ورشيد بوجدرة وكاتب ياسين ويامينة خضرا وكثيرون .

كما وضع مدير المكتبة الجزائرية الأديب أمين الزاوي مسرحية شعرية (بطلة من بلادي) تشيد بكفاح جميلة بوحيرد ، فأعاد بعض اعتبارها ، وتذكرها جيل شاب لم يعرف كثيرا عنها ، وقد شغل الجزائريون بما اقترفه الإرهاب في بلدهم ، وبالتصرات العرقية التي توحلت من أجل التحرير ، ثم أطلت برأسها متوحشة وعنيفة بعده .

ومعارك الجزائر مع بناء دولة الاستقلال متشابكة ومتعددة الجبهات ، فليست الحرية فضاء لامتناهيا للانطلاق والتحليق ، كانت وعورة البناء لنع البهجة ، وقصص البطولات تُطْوى وتُتَبَدَّل ، ويتنكر الباحثون عن أدوار ومراكز في الدولة المستقلة لكثيرين صنعوا فرص إقامتها بتضحياتهم ودمائهم وحريتهم وشبابهم .

هي الثورات تأكل أبناءها .

يصدمني بيت أقام فيه بن بيللا ، بطل الثورة الشاب وأول رئيس جزائري ورفيق جمال عبد الناصر ، ما زلت مأخوذة بمكان يناقض ما تصورت . ليس فيه ما يميزه إلا أنه على هضبة مطلة ، ولمحيطه الخضرة .

أدخل غرفة صغيرة على يمين المدخل ، يتصدرها مكتب خشبي عادي ومقاعد جلدية ، ونوافذ صغيرة على الطراز الفرنسي طُلِيَت بلون الأخضر ، ولا تسمح ستائرها بنور كثير . .

وكانت هناك . .

جميلة بو باشا لا بوحيرد .

أجمل ما رسمها بيكاسو في بورتريه عام ١٩٦١ ليزين كتابا ضمه ١٥ لوحة لمثل انعتاق نساء وشعب الجزائر ، وأفضل ما كتب عنها جان بول سارتر في مقدمة كتاب «حاملات النار» عن الجميلات الثائرات «جميلة بوحيرد ، وجميلة بوباشا وجميلة بوعزة» ، وسارتر هو صاحب كتاب «عارنا في الجزائر» . أما بيكاسو فقد أخفى ثائرات جزائريات في منزله في باريس تأييدا وتعاطفا مع ثورة شعبهن .

رسم بيكاسو وجه جميلة كامرأة من جزائر جديدة ، ثائرة ومتعلمة ، ليدحض صورا نمطية لمثلها الاستشراق عن الجزائريات كحريم في مخادع الولاة ، وكرس صورتهن للمستشرق الفرنسي «دو لاكروا» الضابط الرسام ، كأمة جنس مقموعة لأكثر من قرن .

كف جميلة اليمنى تغطي يدها اليسرى في حضنها . . تحركها بصعوبة بالغة وللضرورة ، اخرج رسمها من كسور التحمت وحدها أثناء اعتقالها وتعذيبها .

باغتها الفرنسيون فقبضوا عليها بعد أن طوقوا بيتها واعتقلوها مع شقيقها بتهمة وضع القنابل ونقل الأدوية والمعلومات للثوار .

كانت جميلة بوحيرد قد اعتقلت حين أخفى الاحتلال الفرنسي نبأ اعتقالهم زميلتها «جميلة بوعزة» صديقتها ورفيقتها في النضال

بدأوا بتعذيبها لتعترف . . ضعفت بوعزة في قسوة ورهبة التعذيب الجسدي والنفسي وكان فوق الاحتمال ، فباحت بأسماء رفاقها وما تعرف ، وقوة احتمال التعذيب والاغتصاب والإهانة تتفاوت حتى عند الثوار ، وتدمير الكرامة الشخصية والإحساس بالذات طرق ناجعة لانتزاع المعلومات والاعتراف من المعتقلين ، يطبقها القتل والأجهزة الأمنية في العالم بأسره ، ومارسها الفرنسيون بتوحش حين اشتدت ثورة المليون ونصف المليون شهيد ، وبرز دور النساء فيها . اعترفت بو عزة على بوحيرد بهستيريا وصراخ ومظهر غير طبيعي دفع المحامين إلى المطالبة بالكشف على قواها العقلية لشدة تعذيبها . كشف الثوار عملياتهم وصمدوا كفاحهم فرد الفرنسيون بعنف همجي غير مسبوق .

كانت الجميلتان في السجن حين قبضوا على جميلة بو باشا في بيتها قبيل الاستقلال عام ١٩٦٠ ، الشابة الحسناء ، ابنة العائلة الكبيرة المتدينة . صبية في العشرين تحلم بوطن محرر وبيت يخفق فيه القلب مع من تحب ، وأولاد يتابعون ما بدأت أو يطالبهم استقلال تناضل من أجله . . ويكبر الحب طاهرا في قلوب تتسع للوطن وما عليه ، وتحلم جميلة أن تتوج حبها يوم استقلال بلدها وقد بدا قريبا مع تصعيد الكفاح .

شابة جميلة ساحرة يلاحقها الإعجاب وشهقات الإكبار لحسن أخّاذ ونعومة طاغية حتى في عنفوان الثورة . . خفق القلب الصغير بعاطفة بريئة طاهرة عفيفة لشاب رقيق ، حب لم يتعد نظرات تعكس

خوالج القلب . وينتظر التحرير ليكتمل بيتا وأسرة .

اشتد تصعيد الثورة قبيل الاستقلال وكانت هجماتها ، فتوحش الفرنسيون في تعذيب من يعتقلون من الثوار بما فاق كل تصور . ولأن المرأة الجزائرية جزء من ثورة التحرير ، لجأ المحتل إلى الاغتصاب والاعتداء الجنسي للضغط على المناضلات للانهيار والاعتراف ، في الجزائر ومثلها فلسطين ، فالعنترية وسيلة ضغط قلما تفشل في مساق الفكر العربي الجمعي . . وقد اعترفت جميلة بوحيرد لأصدقائها بأن هم أمها الأول في زياراتها كلها أثناء اعتقالها- ورغم ما قاسته- انصب على التأكد بأن الجنود لم يعتدوا عليها ، تلح وتسأل فتكذب جميلة لئلا تموت والدتها كمدا وحسرة .

لم تلتق البطلتان الجميلتان بوباشا وبوحيرد وجها لوجه حتى يوم لقائي بها . ولكنها تعرفت إلى بوعزة في سجن الاعتقال فقط .

هي جميلة بو باشا ؟ .

شعرها ستائر ليل طويلة كثيفة تحيط وجها ساحر القسمات . لماما كما وصفتها سيمون دي بوفوار ومعلمتها في كتاب عنها . عيناها سوداوان واسعتان وجسدها نحيل أقرب إلى القِصَر ، تغوص في طرف المقعد الجلدي ، خجولة أنيقة في هدوء ، فكيف تحدت وحوش الأرض وسباع الجبال؟ وكيف سارت بقدمين صغيرتين لتقطع الشعاب وتتسلق وعورة القمم في الأوراس والأطلسي وظلام الليالي ، تنقل السلاح والدواء والأخبار للثوار في الجبال؟ وكيف قاوم جسدها التعذيب

ضباطا عذبوها وسربا من الطيارين حاصروها واعتقلوها؟ ثم هزمت رهبة التعذيب بالكهرباء وتجاوزت قسوة الاغتصاب حين زاد توحشهم بصمودها وصمتها . . فضوا بكارتها بعنق زجاجة فأصيبت بنزيف حاد . . ثم ربطوا جسدها وأعضاءها الحساسة بالكهرباء فصمدت ، يركلونها عارية بأحذية عسكرية ثقيلة ، ويحتسون البيرة ويبصقونها عليها ، أنهكوها بالركل والضرب فلم تهن .

كتب شقيقها من معتقله إلى محامية فرنسية لتدافع عنها ، فخاطبتها برسالة في سجنها وطلبت لقاءها ، صُدمَت بفتاة نحيلة جميلة ساحرة صغيرة الحجم تخبرها أن كل شيء فيها تعذب وكُسِرَ إلا روحها ، وتطلب منها أن لا تدافع عنها وحدها بل عن كل الثوار المعتقلين معها ، وتشير إليهم وتروي عن بطشهم وتعذيبهم مثلها من وراء قضبان زنزاناتها .

فاقت بوباشا وتحملت أكثر من المناضلات قبلها ، فقد جن جنون الفرنسيين مع اشتداد الثورة قبيل الاستقلال .

كانت جميلة البطلة تتكوم على نفسها بخجل وتعومة عشرينية عذراء ، فكيف أمكن لتلك المرأة الجميلة الرقيقة ، واللامع الدقيقة والبشرة الصافية الساحرة أن تتسلل ليلا في غابات الجزائر؟ لم تجزع من عواء ذئابها ، ولم تتحسب لتحفُّز وشراسة وحوشها . . تغذ خطاها لتسهم في كفاح شعبها .

وبدا شبه مشلولة تستعيد تفاصيل ما حدث . .

أتذكر تعذيب زميلتها جميلة بوحيرد في فيلم يوسف شاهين وبطولة ماجدة يوم تحولت به وباغان عنها أسطورة لتحرير الجزائر .

أقشعر .

نبدأ التصوير ، أسأل جميلة عن رفاقها .

تجيل بصرها وتلتقط صورا ، وتتفرس وجه رئيسة الاتحاد النسائي الجزائري .

تستعيد عيناها ملامح رفيق نضالها محمود بوزوزو ، الشاب اللعوب الذي حوله الكفاح إلى بطل جزائري مرموق دوخ الفرنسيين . وهالني ما حدث .

تتوقف . . تغطي البطلة وجهها لتمنع صورا تترى ، لم تحتمل البطلة استعادة هول التفاصيل ، بينما يلح من حولها بنفاد صبر أن تتجاوز قسوته وعنفه وجروح روحها وجسدها وتتحدث عما فعله المحققون بها . . أن تستعيد الرهبة بساطة وتواجهنا بها .

تفرس رأسها الجميل في حضنها وتنفجر ببكاء متصل .

نحتار ونرجوها أن تتمالك .

تستحضر الماضي القريب ، فيخنقها بوحها .

تنتحب البطلة . . وأغلب دموعي .

جميلة بوباشا ، عضو جبهة التحرير الوطني الجزائري ، سليلة عائلة وطنية دينية معروفة ، درست في مدارس عربية قبل أن تنضم إلى الثوار . .

إحدى الجميلات الثلاث لا تتوقف عن البكاء ، وهي تعدد رفاقا لها استشهدوا .

ابكي معها . .

يتوقف التسجيل . . يشير مدير التصوير وتتلاحق مواعيد أخرى وجميلة لا تتمالك نفسها .

أصلح ماكياج عيني ، وابدأ من جديد .

تسترجع البطلة مشاهد كفاح لم تشارك إذ تشارك في صنعها ، ولكنها وفي استعادة الذكرى لأول مرة بعد سنين ، يوجعها دَوِيّها ويسحقها الصدى .

تغطي جميلة عينيها لتمنع تدفق الماضي ، تدفن رأسها في حجرها مرة أخرى . . وتبحث عن كلمات من العربية والفرنسية تعتذر بها .

أوقفنا التصوير لعلها تهدأ ، شربت ماء ، احتضنتها رئيسة الاتحاد النسائي ورجتها أن تتمالك .

اسألها كيف ترى مستقبلها الشخصي بعد أداء واجبها الوطني ومستقبل الجزائر بعد التحرير؟

تنفجر البطلة ببكاء هستيري كأنما نكأت جرحا دفينا فتنزف روحها معه .

لم تحدثنا عن حب ضاع فداء الثورة ، تتكر لها من تحب بعد انتشار قصة فض بكارتها بزجاجة ، وربما لم يصدق العاشق الشاب

أنهم توقفوا عند هذا ، فحاسبها على قربان قدمته سلفا لأبنائها ، لكي يعيشوا في وطن حر ، لكنه اكتفى بها بطلة قومية ، وبحث عن أخرى لم يُعرّها جنود غاصبون عنوة وبلسوة ويخترقوا عذريتها بزجاجة فتنزف روحها .

ضاع الحلم الجميل فداء وطن وثورة يوم حاسبها الحبيب على انتقام أعدائها ولم يقدر تضحيتها . . هزمته فكرة أن الجزائر كلها والعالم يعرفون ما فعله الجنود بها . يقبل بها بطلته لا زوجته ، فتخرج جميلة من الاعتقال يوم الاستقلال محطمة تماما .

تبكي جميلة وطنا يختلف قادته ، وتتجمع في سماله نفر إرهاب ستدفع الجزائر ثمنا باهظا له .

لم أقدر حينها خطورة ما يُبكي الجميلة بوباشا ، فقد رأته دوني . بل وساورتني الشكوك فانخطأت ، اعتقدت أن تهميش الأبطال وهي منهم ، وإنكار الدور ، والانزواء التاريخي بعد الاستقلال ، ثم انقسام الثوار وانقلابهم على بعضهم ، وانحسار الضوء يُبكي بطلة قدمت كل شيء لبلادها .

ولكن جميلة رأت أبعد مما رأيت . . كانت تستشف مستقبلا ضحت بكل شيء لتشرق شمسه فهللها وأبكاها ، تراءت لها حمامات الدم الجزائري تُراق بسلاح شعبها وباسم الدين ، يذبح الأخ أخاه ورفيق نضاله ، فتلطخ قسوة الإرهاب سماء لحررت ، ويجلل سواد الحزن والرهبة والخوف أرضا تروت بتضحيات أهلها . استشفت من

ضحت بكل شيء لتحيا الجزائر أن الإرهاب القادم سيبدل زغاريد الحرية وانتصار النضال وفرح الاستقلال نواحا ومأتما كبيرا ، وهو يذبح قرى بأكملها ، أطفالها ونساءها ، ويقتل ويحرق ويغتصب ويخطف ويساوم على الفدية ويجند شبابا تائهين ، وينشر الرعب والخوف والتكفير حين نصب نفسه يد الله على الأرض .

قالت وهي ترنو إلى أفق من الناقلة على يمينها وتحاول رفع كفها المعطلة :

- كان النضال في الجبال أفضل من الحياة الآن ، لم نكن نعرف أننا نموت ونضحي من أجل هذا .

وصمتت جميلة عن الكلام المباح . .

ترجوها رئيسة الجمعية أن تشرح فتزداد بكاء ، ضاق مدير التصوير ورفض الاستمرار في هدر الوقت والشرطة معدودة لا تباع في الأسواق العادية ، ولا شيء مفهوم في بكاء حتى ولو من بطلة لحجب وجهها عنا بكفيها .

أرجوه أن يكمل بينما تقدم لها رئيسة الجمعية الماء وتحدثها بالفرنسية . . تشمر تنتحب لعشر دقائق . . نبدأ من جديد .

سجلنا نصف ساعة . . كنت أعرف أن ما يصلح بعد مونتاج مضن لن يزيد على دقائق ، ورفضت جميلة الاستمرار ، احتضنت رأسها من جديد .

خرجنا في تواصل نحييها .

كنت يومها صغيرة ، وفي الشباب يتمحور اهتمامك حول ذاتك وما تود تحقيقه وما يجب على إنجازك في مهمة قصيرة محددة ، وبلد تكتشفه لأول مرة .

شغلنا تعويض ما فاتنا من جميلة بلقاءات أخرى وتصوير الجزائر .

أنتقل إلى بيت الأيتام وأبناء الشهداء .

كانت إرهاصات الآتي تتفاعل هناك .

مئات من أطفال الثوار يحكم القطاء والأيتام رغم ولادتهم من زواج شرعي صحيح وأباؤهم أحياء يرزقون . . فلم يتبق لهم من ثورة التحرير سوى إقامة مع أيتام مثلهم ، وأمهات عاجزات عن كفالتهم لا يعرفن عملا ، تأتي بعضهن للاطمئنان ، بينما تزوجت أخريات لضمان عيش وأسرة فشغلتهن عن زيارات منتظمة ، وربما ارتحلن مع الأزواج بعيدا وانقطعت صلتهن بهم .

أمهاتهم جزائريات رضين بزواج ثوار فخورات بهم في خضم النضال . . وولدن أبناء لأبطال ومقاتلين ، وحلمن بأسرة تمتد وتخرج إلى نهار الحرية بعد كهوف الجبال ، وحين أشرقت شمس الاستقلال بددت الأحلام فصارت سرابا ، واختفى في النور أبطال ظلوا يتسللون إلى بيوتهم تحت جنح الظلام ، وتاهوا في اتساع الجزائر وأصقاعها .

ذاب أبطال ورموز وعادوا إلى أسمائهم وقبائلهم وبيوتهم الأولى في الصحارى والواحات والمدن والقرى البعيدة ، صاروا أثرا بعد عين ،

وتركوا نساء وأطفالا تزوجوهن وأنجبوا منهن بأسماء ثورية غير حقيقية . . وتفككت آلاف العائلات في كل مدينة ، وعجزت الحكومة أو السلطات أو أحد عن الوصول إليهم أو تحديد هوياتهم . . تفرق الثوار ، من تزوجوا ومن شهدوا ومن عقدوا أو عرفوا أسماء لم تعد هي ، فاستحال الوصول إلى من تنكروا للزوجات والأبناء .

كانت الجزائر تعيد تأهيل ذاتها ، وهذه واحدة من أصعب تحدياتها .

قاوم المناضلون الجنود والاحتلال والفرنسة ، ورفضوا التعامل مع محاكم لا تعترف بلغة القرآن وتحاربها . . ورفضوا عقد قران إسلامي لا يُسَجَّل إلا بالفرنسية ، أو يعرّضهم حين عقده في الحضر لمخاطرة الظهور ، فتزوجوا في الجبال والمغارات والقرى النائية ، بشهادة رفاقهم وبشرع الله ، شاهدين وإشهار . . . وبلا أوراق وبأسمالهم الحركية .

والثوار مزيج من القبائل والمحافظات ، وكثير منهم جاء هاربا مبتعدا عن جذوره ومناطقه وأهله خوف ملاحقة أو وشاية ، أخفوا أسماءهم الحقيقية حتى عن زوجات يحلمن بعائلة رغم الخطر والموت .

هي الرغبة الجلال دفعت بهم إلى زواج كان وقته مرهونا باستمرار النضال .

توقفت الثورة فتبخر رجال تزوجوا بنية المؤقت والظرف المتروك للزمن . واختفت في إشراقة الاستقلال وأشعته الساطعة أشباح

بعض المجاهدين . . عادوا إلى أسمائهم وعائلاتهم في مناطقهم ، صحارى وواحات وجبال ومدن وقرى نائية ، وخلفوا وراءهم نساء وأطفالا محبطين ناقمين ، لا يتصورون بطلا يُلقي بهم ويهرب ، ينتمون إلى مناضل لا يعرفون اسمه الحقيقي ، سلخ جلد التخفي وعاد رجلا لعائلة تركها يوما في مكان ما .

ولم تستطع حكومة الاستقلال حل المشكلة ، وفرت دور الأيتام وللقطاء لأطفال تبذهم في الليل ثوار النهار . مخذولين بأب كان بطلا ثم انهزم سرابا .

كبر الأطفال بلا آباء أو أوراق أو شهود تثبت نسبهم وحقهم في زواج شرعي ، فنقموا على كل شيء . . على آباء تنكروا لهم ، وتركوهم أيتاما وعادوا إلى إخوة لهم لا يعرفونهم ، مُفضّلين عليهم ، نصف لشقاء يستأثرون بولد مجاهد هزم الفرنسيين ، يجلس بينهم يفاخر ببطولة ونصر دون أن يذكر أنه ترك زوجة خُدعت وأبناء لفظهم بلا ذنب .

ونقم الأبناء على مؤسسات تؤويهم ، وعلى لياليها الباردة بوحدة لا ذنب لهم فيها ، مؤسسات تقدم القليل وتعجز عن إثبات نسبهم وحقهم فيه ، وكرهوا ثورة وحكومة لا تستطيع حل مشاكلهم فتعثر على آباء ضائعين ، وعلى من قرر زواجا بلا أوراق . . قرار رمى بهم في دور الأيتام أو مع أمهات يعجزن عن حاجاتهم ، قرار جللهم بالحزن بدلا من فرحة النصر .

وتلك واحدة من إرهاصات ما قامت به الجزائر من تطرف وإرهاب .

نظم الأطفال على كل شيء فصاروا تربة صالحة للانتقام ، وارتد بعضهم إلى السلفية حين عجز عن إثبات نسبه لبطل ومقاتل خذله وهرب . . وترنح بهول ما يقاسي نتيجة لما اقترفه الثوار عمدا أو بدون قصد .

صاروا تربة صالحة للتطرف مع مد سلفي اجتاح العالم الإسلامي بعد ثورة الخميني .

أسكنونا حين وصلنا العاصمة في مدينة الشباب ضيوفا على الجزائر .

كان العاملون جزائريين . . رجالا ، ملامحهم فاسية ولا يبتسمون . وساخطون على كل شيء .

وحين نادينا النادل اقترفنا الخطأ الأول .

اشتعلت عيناه جمرتين بالغضب وأسكتنا بإشارة من يده ، ثم لم يلتفت إلينا .

انتهى من توزيع الطعام والعصير على طاولات من سبقونا . . ثم جاء يحمل صحوننا . . فأدركنا أنه طعام موحد . . الكسكسي باللحم .

قرقعت الأطباق حين ألقى بها على الطاولة بضجر كأنه يقول «أكلتم أم تسمنتم هذا لا يهمني ، أنتم لا تعرفون أني بطل جزائري ولست نادلا» .

ولكننا حين سألناه عن الثورة أسقط الحواجز معنا . . صار أنيسا ودودا وهو يستعيد ذكرياته في الجبال ، كيف قاتل وانتصر . . وعن أبناء له «يقرأون» في الجامعات .

يشي الثوار حين انحسرت أدوارهم في دولة الاستقلال . . تخيلوا مهمات تلقى عليهم في البناء بحجم تضحياتهم في الكفاح ، ولم يزاول بعضهم مهنة لم يعرف عملا غير القتال ، ولد وكبر مقاتلا مع الثوار . . فتقدمت صفوف الدولة الحديثة وجوه لم تُضَحِّ مثلهم ، ولم تلتفت لتقديرهم ، فعانوا من الخذلان والانزواء والارتداد والبطالة .

وتلك بداية ما قاسته الجزائر ، العودة إلى الذات ، العرق واللغة والولاية والعشيرة والقبيلة بعد أن صهرتها ووحدتها الثورة إلى حين . وارتد كثيرون إلى التشدد السلفي يوم عجزوا عن تأهيل ذاتهم مع واقع جديد . . وحاول كثيرون نسيان خيبتهم وانزوائهم بالخمر .

كانت للمشكلة أبعادها أن شعب الجزائر كله بطل ومقاتل ومن أجيال التحرير ، وكل بطل ترعرع صبيا مع الثوار لم يعرف له صنعة ، ولكن الاستقلال يحتاج بناة دولة ، إداريين ومحامين وحدادين وعمالا ومزارعين وفي كل مهنة ، فصارت للمعركة الثانية الأصعب هي إعادة تأهيل المقاتلين وإقناعهم بضرورته للمشاركة في بناء دولة مدنية .

مدينة الشباب حيث أقمنا في وسط العاصمة ، محروسة وتغلق أبوابها مع العاشرة ليلا . وحذرونا من الخروج إلى الشوارع بعد الثامنة ، ثم اكتشفنا أسباب خوفهم .

من نافذة الغرفة لسمع ولرى ترنُّح الأبطال وهم يخرجون من الحانات سكارى إلى الشوارع ، يعربدون أو يبكون أو يهتفون بنشيدهم الوطني : وعقدنا العزم أن نحيا الجزائر فاستشهدوا فاستشهدوا . وكانوا على استعداد لقتل من يواجههم أو يسخر منهم .

كان التأهيل معركة البلاد الحقيقية والثانية .

صورنا متحف الثورة ، وأزياء المناطق ، والقصبة ، والبحر ثم الجبال حول الجزائر العاصمة . .

نسير إلى تيبازة ومن بعدها نسافر جوا إلى عنابة .

لنستمع إلى التاريخ للوغل في الحقب الرومانية ثم المسيحية ، ولزور هرما صغيرا يؤكد أن الحضارات القديمة قاومت فكرة الفناء بصروح للخلود ، صغير لا يقارن بما تركه الفراعنة ليوم يعثهم .

تسحرني ريشة الخالق إذ رسم الجزائر ، شاطئا وبحرا وجبالا تتكاثف وتعانق السماء في سلسلة الأطلسي والأوراس ، ثم صحارى ممتدة وقبائل تميزت في الحضارة الإنسانية بثقافتها الخاصة ، الطوارق الذين ينسبون إلى طارق بن زياد ، وفي رأي آخر لأنهم يطرقون الصحراء . . وبلد تزلزل أرضها زلزالها وتميد فتغوص فيها مدينة أغادير .

نمر بمناطق شاسعة مزروعة بأشجار الفواكه ، صغيرة ، تبدو تشازا وخارج سياق العراقة الجغرافية في بلد المليون ونصف المليون شهيد .

يشرح مرافق من وزارة الإعلام . . فنتوقف لنصور .

نشبت أزمة بين فرنسا والجزائر حول العمال الجزائريين المهاجرين وعائلاتهم ، فرنسا تؤكد أن عليهم العودة إلى وطنهم بعد استقلاله ، فهم دخلوا وأقاموا في فرنسا بلا وثائق ، ولا يحملون جنسيتها ، بينما تؤكد الجزائر أنهم دخلوا فرنسا كرعايا لها قبل الاستقلال حين كانت تعتبر الجزائر ولاية من أقاليمها ، وعمل بعضهم مخبرا لفرنسا وضد بلده وثورتها ، ومن المهاجرين من وُلِدَ هناك ولم يعرف الجزائر أصلا . .

تشدد البلدان ، وتفجرت مشكلة بين الدولتين ، فرنسا لا تريدهم ، والجزائر لن تتحمل عبئهم .

كانت الجزائر ما تزال المُصَدِّر الرئيسي للعنب أساس صناعة النبيذ الفرنسي الشهير . . وقد زرع الفرنسيون آلاف الكيلومترات من أرض الجزائر الخصبة بأجود أنواع الكروم ، ونص اتفاق الاستقلال بين الدولتين على استمرار تصدير العنب الجزائري إلى فرنسا خوفا من تضرر صناعة النبيذ ، وهي أحد مصادر الدخل القومي الفرنسي .

انتظرت فرنسا نضوج العنب وتحميله في بواخر الشحن ، ثم فجرت أزمة المهاجرين من جديد للضغط على الجزائر . . أوقفت سفن الشحن في عرض المتوسط محملة بمئات آلاف الأطنان من العنب . . ورفضت إدخالها قبل التوصل إلى اتفاق بشأنهم .

بقيت البواخر في عرض البحر أسابيع في رحلة لا تستغرق أكثر من يومين ، وفسدت حمولة العنب في سفن غير مجهزة .

ثارت كرامة وعنفوان الرئيس الكولونيل هواري بومدين بمحاولة

الإرغام ، ولي ذراعه من دولة هُزمت في بلده وعلى أرضه . . أمر بإلقاء الحمولة كلها في مياه المتوسط مذكرا بفصل من التاريخ الأمريكي المعروف «بحفلة الشاي» ، يوم أفرغ الأمريكيون سفن الشاي البريطاني في عرض المحيط معلنين رغبتهم بالاستقلال عن المحتل . .

تحملت الدولة والمزارعون الجزائريون خسارة محصول عام كامل ، ولم يكتف الرئيس الثاني للجزائر المستقلة هواري بومدين فأمر بأن تُقتلَعَ الكروم كلها ، وتُزْرَع أرضُها بأنواع الفواكه ، فلن تبقى الجزائر تحت رحمة فرنسا واستغلالها في محصول واحد .

صوّرتُ لشجارا صغيرة يانعة تروي أغصانها حكاية أخرى في سلسل شموخ وأنفة وصبر الجزائر .

قال لي رواتي صديق ومثقف جزائري بارز : إن ما فعله بومدين حينها ردة فعل عصبية وغير مدروسة ، فبدلا من اقتلاع الكروم وهي في عز عطائها ، كان عليه أن يقيم مصنعا ينتج النبيذ ويبيعه لفرنسا غاليا بعد أن ظلت تشتري العنب بسعر رخيص وتَصْنَعُهُ وتصدّره باسمها ، وسيكون النبيذ مصدر دخل قومي مستمر لا يقل عن البترول والغاز ، وكان تفادى تعطيل الإنتاج الزراعي لتلك الأراضي الشاسعة سنوات حتى أثمرت الأشجار الصغيرة .

ولكن : هل كان خريج الأزهر بومدين سيفكر بمثل هذا؟ وهل كانت جماعات التطرف القادم ستحتمل تفكيرا عمليا وتجاريا ومنطق الربح والخسارة؟ أو تغفر للجزائر لو فعلت؟ أم كانت ستتخذ من هذا

ذريعة أخرى لمزيد من توحشها وهمجيتها في ذبح الأبرياء؟ وأكثر ما فعلت يوم قتلت قرى بأكملها وسبت نساءها ولم ترحم أطفالها وشيوخها لمجرد مشاركتهم في الانتخابات، ونشرت العنف الدموي والإرهاب؟.

تشرق جبال الأوراس، تقف على قمة منها وعند حافة غابة كثيفة متشابكة من السنديان والفلين والسرو والخروب، تلفز النسانيس فتقف على حافة سور يحمي السيارات من الانزلاق في لودية سحيقة، اعتادت القرود الحمر مداعبة الزوار والسياح، تخطف وتلتهم ما تمده من موز، لم تلتفت لتحذير عن خطرها في لوحة معدنية كبيرة زُرِعَتْ في الطريق. تتوقف سيارات المصطافين والمتنزهين فيطعم الصغار النسانيس ويفرحون، كانت مناطق الجزائر ما زالت آمنة للتجوال قبل أن يعصف بها الإرهاب، ويبتعد الناس عن أي متنزه لو أشجار ملتفة، حتى في العاصمة، خوف أشباح تبرز فتخطف وتقتل بلا ذنب.

في زيارتي الثانية للجزائر هبطت الطائرة في مطار عنابه.. يغسل البحر قدمي الجبل وتغني أمواجه الخضرة غاباتها، وتغمض الشواطئ عينيها على عصف ريح وزمهرير في ليالي العتمة الطويلة حين تهبط الحرارة إلى ما دون الصفر.

ننتقل بطائرة صغيرة إلى الصحراء ومعسكر تيبة.

كنا فريقا تلفزيونيا نبحث عن الأسرى الفلسطينيين المحررين في

تبادل الأسرى مع إسرائيل ، وقد استضافتهم الجزائر إلى حين .

التقينا أبو الزعيم في المطار متوجها إلى المعسكر نفسه لتفقد المحررين ، خرجنا من الفندق مبكرين وبلا طعام ، والمصور يحمل بعض «القلب» «البزر الأبيض والأسود» فتقاسمناه . . وقَمْقَمَ» أبو الزعيم بعضه مثلنا ، كنا عقيقي فتحي ورجاء العلمي محرر الأخبار وأنا ، وحين تأخر الإقلاع لسوء الأحوال الجوية ، وتأكد أبو الزعيم أن موجة ثلجية ستهب كما أعلمه أحد رفاقه ، حاول ثنينا عن رحلة خطرة في طائرة صغيرة . . انتظرنا الطائرة . . وانسحب متهما إصرارنا بالجنون .

تلك المرة الأولى والأخيرة التي رأيته فيها ، كان وزوجته يتدثران بمعطفي صوف وفراء ، بينما الأسرى المحررون يرتجفون في ملابس رياضية خفيفة .

قضينا ليلة في معسكر تبسة نسجل أحلام أسرى تحرروا ، لم نأكل شيئا منذ الصباح فقد خرجنا في الخامسة لنلحق بطائرة ستقلع في السابعة ، ولكنها تأخرت حتى الثانية عشرة فوصلناهم عصرا ، نتضور جوعا ونرتجف من البرد ، جاؤوا بلبنة وزيتون وخبز . . وبدأنا نسجل ليلا في براكس معدني واسع هو كراج للسيارات العسكرية . . وحدثني المحررون عن مستقبل غامض مقلق بعد خروج المنظمات الفلسطينية من بيروت ، وذكريات للمقاومة والاعتقال وغنوا للوطن والحنين إليه ، تلك أهازيج وأغان ونُسَّت وحشتهم وقوّت عزيمتهم

ليحتملوا تعذيبهم وزنازينهم . . وتدنت درجة الحرارة إلى ثمانية دون الصفر ، لجمد الميكرفون قطعة جليد فأنقله بين يدي لأحتمل برودته ، وحين أحس الفدائيون المحررون بأنني أرتجف ، عرض بعضهم جاكيتاتهم الخفيفة رغم معطفي الصوفي . كانت أجسادهم قد اعتادت برد الزنازين وقسوة الاعتقال والأسر .

قابلنا صلاح التعمري ، وكان مسؤولا عن المحررين في المعسكر ويعيش مثلهم . . ويحسب للرجل أنه رفض أن يتركهم حتى تدبر أمورهم . . تأمين جوازات سفر واتصالهم بعائلاتهم وانتقالهم إلى حيث أهلهم أو دول تقبلهم . . وكان من بينهم تريز هلسا .

وفي المعسكر التقيت فاطمة البرناوي وقضيت الليلة معها في كابينة صغيرة خُصصت لها ، وعدنا في الصباح .

تترى صور من بطولات الجزائر كلما ذُكرت أسامي أو طافت بالخاطر ، تتصدر الرؤى إحدى حاملات النار جميلة بوباشا ، تلك المرأة المفعمة الجمال رقيقة الجسد التي رسمها بيكاسو في بورتريه فكانت صورتها خروجا في مسيرته الفنية ولكنها أذهلته ، شفافة في قوة بصيرة ، متأصلة أعطت لثورتها كل شيء فتخلتها من الحب ونسيتها الثورة حين نجحت . . رأت البطلة ما لم تستطع تبينه حينها ، الإرهاب ، والارتداد إلى الذات بعنف وقسوة ، والاحتماء بالسلفية حين مادت الأرض تحت أقدام شعب ثار وانتصر ، وعليه أن يعيد تأهيل ذاته فلم يحتمل كثيرون . . استشرى إرهاب عصف بدماء

الأبرياء واستباحه ، فانتحبت بطلة التحرير أمامي على القادم المجلل بالسواد ، بينما أنا والفريق نتحسر على فرصتنا معها ، ونأسف حين لم تقاوم بطلة المليالي الثائرة حزنها وما قاسته ، وغلب نحيبها بوحا لم يعرف سببه سواها .

هي رؤية بطلة استشفتها من حب لا يحد لوطن ضحت من أجله بكل شيء .

■■■

عزة.... يتيمة الرياض

التقيت عزة . . نحيلة قصيرة وتبدو أصغر من الثالثة أو الرابعة عشرة عمرها الحقيقي حين رأيتها ، كان ذلك في زيارتي الثالثة للمغرب عام ١٩٩٨ .

لم ألتفت إلى متدربة صغيرة حين دخلْتُ صالون التجميل في الفندق الفخم في الرباط . . تراقب العمل لتتعلم ، تعلم الأدوات ، تعاون الكوافيرة بما تحتاجه ، ترتب ، تطلب القهوة ، وتكنس الأرض بعد قص الشعر .

كنت أجيب عن أسئلة «مشاغبة» فضولية : من أي بلد أنا؟ ولماذا جئت ؟ وماذا أنجزت؟ والأماكن والموضوعات التي أريد تصويرها .

ويتميز الحلاقون من الجنسين بقدرة جر الزبون إلى الحديث وإن لم يرغب ، وبأنهم مصدر للأخبار .

تابَعْتُ الصغيرة حين نهرتها صاحبة الصالون . . توبخها وتطلب منها أن تتوقف عن التشتت وتنتبه لعملها لتتعلم بسرعة ، كانت ما تزال تمسك بفرشاة يتساقط منها الماء والصابون ، وتقف بجسدها النحيل عند المغسلة مأخوذة بحديثنا . . تنصت وتتابع ولا تكمل ما

بدأت ، والحوار مع الملكة وأخت مجفف الشعر يرتفع رغما ، فكل منا لا تسمع جيدا في هديره .

توقفتُ عند نظرة الصغيرة ، مسحورة ، كأنني أصف عالما ليس على كوكبها ، وتشع نظرات حسرة على بعده من عينين واسعتين لا تلتقطان تفاصيله فتحزن . . ويختلط فيهما إعجاب يغلبه الانكسار ، ويجبرني على التمعن في خصوصية طفلة .

قلت لنفسي إنها هي صغيرة تتمنى لجومية الإعلام وبريقه ، ولا تدري متطلباته أو عناءه كمعظم الفتيات .

عرفت أن اسمها عزة .

أطرقت الصغيرة كسيفة بغضب الكوافيرة وإصرارها على أن تنتبه لعملها لتتعلم الصنعة ، وبدأت تنظف فرشاة الشعر بضيق واضح .

يُطِلُّ باب الصالون على ممر طويل يؤدي إلى المصاعد والغرف ، ويقابل المطعم المغربي للوجبات التقليدية ، البسطيلة الشهيرة بالحمام أو الدجاج أو السمك ، يُحشَّر اللحم ويوضع بين الخبز المرقوق واللوز المحمص والسكر مع القرفة والبهارات والسمن ، وهي من أشهى الأكلات المغربية . . ويمكن مشاهدة ما يقدمه المطعم ومواقده وزبائنه من نوافذ زجاجية كبيرة تطل على الممر ، أو للداخل والخارج من صالون التجميل . . ويجلس عند بابه ساق بالباس المغربي التقليدي يقدم القهوة والشاي المغربي .

على يسار مدخل الفندق كافيتيريا واسعة تظللها الخضرة وتعج

بالرواد في كل ساعة ، وعلى يساره وبينه أرتيزانات تبيع بعض الثياب والجوهرات المغربية التقليدية . .

تحت عزة مرات في نزولي وصعودي إلى الغرفة ، تقف على باب الصالون بقلق يهزها ولا تخطئه عين ، تتفحص ما حولها بذهول وانبهار ، ونظرة لا تستقر ، ودهشة تغيط عالما غريبا لم تكن تعرف أنه موجود ، فرأته عيناي بريئتان صدفة ، فاتسعت حدقتاهما .

لا تبتسم عزة إذ أمر ، ولا تشرب مني حين أدخل الصالون . . فقط تتابعني بنظرها مأخوذة ، كما كل شيء حولها .

كنت أنتظر الموافقة على حلقة تلفزيونية أعول عليها كخبطة إعلامية ، عن اليهود المغاربة ، ومعي فريق العمل ، المخرج القطري خالد النعمة ومدير الإنتاج أحمد كاهورا والمصور وأنا ، وكنا نجتمع في الكافيتيريا كل صباح ننتظر إشارة لا تأتي ، ونشرب الشاي المغربي الشهير بالنعناع .

كنا قد أنهينا مهمة في تونس ، وتشارف مهلتنا في المغرب على الانتهاء ولم يتحقق حلمي بعد . ويرتهن تنفيذ حلقة تشغلني باستجابة أندريه أوزولاي المستشار المقرب من الملك الحسن الثاني على لقائنا ، وربما تصل إلى الجالية اليهودية المغربية عن طريقه .

صورنا المدينة ، وموضوعات أدبية وفنية مع كبار الكتاب والفنانين المغاربة ، منهم عبد الكريم غلاب المجاهد والمفكر والصحفي المغربي . ثم انتقلنا إلى الدار البيضاء للقاء الفرق المسرحية المتنوعة ، والمطرب

للعروف عبد الوهاب الدوكالي .

يستغرق الطريق بين الرباط والدار البيضاء ثلاث ساعات ونصف تقريبا ، على جانبيه كروم عنب ممتدة ، أوراقها يانعة في بداية حزيران ، فالمقارنة لا يستعملونها في محشي ورق العنب كالشارفة . . قلم يلتفت تنوع مائدتهم وغناها لأطباق تغير خصوصيتها .

الدار البيضاء ككل المواني منفتحة اجتماعيا ، متنوعة ثقافيا رغم الصبغة الإسلامية ، فيها نشأ وترعرع المسرح المغربي ، وتنوعت فرقه وعروضه ، وهي مدينة الكتاب والفنانين ، مفتوحة كميناء نابض بالحياة لكل العابرين فيها ، وترتفع فيها نسبة الفقر والغلاء ، فيعاني جيلها الشاب من لبعات الانفتاح ، ارتدادا سلبيا أو انطلاقا تغريبيا . .

تَزَيّن الشاطئ الغربي من الدار البيضاء بأكبر المساجد المغربية ، مسجد الحسن الثاني يربض بهيبة وجلال على شاطئ المحيط . اكتمل بناؤه عام ١٩٩٣ فجسد معماره الأندلسي معنى الآية القرآنية «وكان عرشه على الماء» . . شيدوا لسانا طويلا امتد في المحيط ، ودُعّم بأربعة أضعاف ما يستعمل في البناء من الخرسانة المسلحة ، وعند نهايته ارتفعت المنارة لتتساوى مع علو مئذنته إلى ٢١٠ أمتار ، ومساحة قاعة الصلاة في مسجد الحسن الثاني ٢٠ ألف متر مربع ، وتتسع لخمسة وعشرين ألف مصل ، أما باحاته الخارجية فتسع لـ٨٠ ألفاً آخرين .

ألحق بالمسجد متحف كبير ، ويعتبر واحدا من أهم المتاحف

الإسلامية ، ويضم أنماط الحرف العربي التي نسخ به القرآن ، وتراثا إسلاميا نادرا من المصاحف ، أصغرها ، وأكبرها وأقدمها . . . ويعج الكورنيش أمام المسجد مع المساء بأهل الدار البيضاء ، وهم ينتزهون ، ويتمتعون بأجمل منظر للغروب حين يغطس قرص الشمس البرتقالي متوهجا وراء المحيط ، ويسجد خلف الأفق لقدرة خالقه .

لم يشوه هذا المشهد المعماري الرائع حين صورناه سوى كثرة المتسولين في باحاته ، واستوقفتني نسبة الفتيات الصغيرات والأطفال بينهم . .

التقينا عبد الوهاب الدوكالي في الطابق السابع عشر لبناية ارتبط اسمها به ، ويطل من شرفتها الرحبة على مدينته والمحيط ، كل ما في الشقة الكبيرة يُذكّر بماض شهير ونجاح لافت ، فالمطرب الشاب آنذاك حقق شهرة محلية وعربية ونال أكبر جائزة عالمية للغناء في الخمسينات ثم الستينات ، وهو أول من أطل بالأغنية المغربية على العالم العربي ، وظل نديما وحاضرا في حفلات الملك الحسن الثاني وفي بلاطه ، وعُرف عن الملك الحسن الثاني تقديره العميق للموسيقى والطرب وتذوقهما ، ويقال بأنه هو نفسه كان عازفا ماهرا على العود ، وظل يقيم حفلات للمطربين الكبار في قصره يحضرها علية القوم والسفراء .

حقق الدوكالي شهرة عربية واسعة في بداية الستينات حين ذهب إلى مصر ، ومثّل في بعض أفلام عربية ، فقد كان شابا وسيما

موهوبا ، وصادق عبد الحليم حافظ ، وربما لعب دورا مع سفارته في إيصال رسالة العندليب إلى الملك الحسن الثاني ليرفع المنع عنه في الإذاعات المغربية ، ويسمح له بزيارة المغرب والغناء فيها . فقد اتهم عبد الحليم بمحاباة الجزائر والغناء لها والتعليق على مسألة الحدود ونتازع ملكية الصحراء ، وهي القضية التي ما زالت عالقة بين البلدين حتى اليوم ٢٠٠٩ . ولقد دعا الملك عبد الحليم حافظ إثر تلك الرسالة التي كتب حليم فيها أنه فنان لا سياسي ، وأن الوشاة قولوه ما لم يقل .

غنى العندليب عبد الحليم حافظ بصوته الساحر في بلاط الحسن الثاني ، ثم أصبح نديما شبه حاضر في بلاطه ومناسبات المغرب ، وأغدق الملك عليه الكثير إعجابا بصوته وفنه .

عدنا للرباط ننتظر «الخبطة التلفزيونية» التي جئت من أجلها . أردت إثبات التسامح والتعايش وقبول الآخر في المجتمعات الإسلامية المحافظة ، باعتبار أن وضع ومكانة يهود المغرب شاهد لا يُدحَض ، فهم يحظون بالرعاية الرسمية حتى وصلوا المراتب العليا ، وبالقبول الشعبي حيث يعيشون بحسن الجوار مع المسلمين .

طلبت من خلال سفارة قطر في المغرب تسجيل لقاء تلفزيوني مع مستشار الملك أندريه أوزولاي ، فموقعه يدلل على المكانة التي تحظى بها الجالية اليهودية .

يتململ الفريق في انتظار ما لا يأتي . . ومر الأيام تباعا ، والإنتاج

يحسب أياما بلا عمل ، وأنا لا أستطيع لقاء يهودي واحد .

تصور الرباط .

تتجول وتجمع «فوتاج» مقاطع عن معالم المدينة وأسوارها وآثارها ، صومعة حسان بن ثابت ، وقد بقيت مئذنته شاهدا على رغبة السلطان يعقوب المنصور الموحدي في بناء المسجد الأكبر في عصره ، كان طوله ١٨٠ مترا وعرضه ١٤٠ مترا وترتفع مئذنته إلى ٤٤ مترا ، ولكن البناء توقف بموت السلطان ، ثم ضرب زلزال كبير منطقة الرباط فتهدم ولم يبق منه إلا المئذنة شاهدا على ما في النيات والقلوب .

وتشتهر المغرب بطرز عمارتها ، ووضوح الأثر الأندلسي . . ومن أجملها ضريح الملك محمد الخامس في الرباط حيث جمع طرزا إسلامية عدة ، وهو تحفة معمارية رائعة تشهد على مهارة الفن المغربي ، يغطي خشب الأرز المحفور «أرابيسك» والمستورد من لبنان السقوف والجدران ، وتكسي أرضيته بالفسيفساء القرشاني الملونة بنقوش ورسوم يبرع فيها الصناع المغاربة ، وكتبت الآيات القرآنية على الجدران بخط الرقعة بفنية عالية . وعند الضريح مقرئ يتلو من الذكر الحكيم على مدار الساعة .

تقع مدينة الرباط على نهر أبي الرقراق ، وقد أصبحت عاصمة للمغرب بدلا من فاس في عام ١٩١٢ ، وتتكون من سلا والرباط ويفصلهما النهر .

عُرفَت سلا قديما بأنها مدينة القراصنة وارتبطت بهم ، فهي

شريط يابس بين ماتين ، تطل على البحر المحيط كما يسمونه ، ويفصلها نهر أبي الرقراق عن الرباط ، أقيم على مائه جسر خشبي منذ وجدت الرباط . . وقد روع قراصنة سلا سفن أوروبا ، ينهبونها ويختفون على ضفتي النهر وبين كثافة الأشجار فيصعب ملاحقتهم إلا ركضا ، وإنا لجمراً أحد على دخول منطقتهم راجلا التف عليه القراصنة وذبحوه .

اشتكت دول أوروبا إلى حكام المغرب ترويعهم للسفن ، فحارب مولاي الرشيد ومن بعده المولى إسماعيل القراصنة وهزمهم ، وبنى سورا من جهة البحر حول سلا يعيق هروبهم لو هاجموا السفن ، فتحولوا إلى زراعة الأرض وما زالوا .

بنى الحاكم يعقوب المنصور مدينة الرباط أواسط القرن الثاني عشر وسماها «رباط الفتح» ، فهي مكان تجمع فيه المجاهدون للقتال قبيلة برغواطة البربرية ، يربطون خيولهم ويتكاتفون على الجهاد ويتعاهدون أن يشدهم رباطه أو وثاقه .

يحيط بالعاصمة القديمة سوران ، الموحدي والأندلسي ، ويعلو السور الموحدي الخماسي الأضلاع عشرون برجا لمراقبة الحدود من الغارات والغزاة ، وجعلوا للمدينة ثلاث بوابات كبيرة أجملها الباب المقابل للسور .

يقودنا «باب الأوداية» الحجري عبر أدراج واسعة وخضرة إلى سكن بناة الرباط حكام المريني . . آثار تعكس نمط حياة أسرة حكمت

المغرب في العصور الوسيطة . . على شمالنا مبنى «النزّالة» وهو «بيت ضيافة» ينزل فيه الحجاج والزوار ، ثم تتبلج بوابة السور العتيق عن أربع مجموعات معمارية متباينة كانت سكنا للأسرة الحاكمة ، ثم مقبرتهم ، وتتميز بقبابها المستديرة ، وأشهرها قبة السلطان أبي الحسن ، وقبة زوجته شمس الضحى ، وعلى طرفها الجنوبي أقيم الحمام الشهير من أربع غرف واسعة ، الأولى لخلع الملابس ، والثانية للماء البارد ، والثالثة للدافئ والرابعة للساخن (جاكوزي وسونا ذلك العصر) ويميز قباب الحمام أنها نصف دائرة فقط .

رأيتها هناك .

عزة . . وحيث لم أتوقع .

عند طرف السور القصي لباب الأوداية المطل على المدينة .

وهالني ما رأيت .

انسحبت من بين شابين صغيرين يحيطانها ويلتصقان بها لحظة رأتني ، انسلت من بينهما واندفعت تحوي بسرعة ولهفة ، وسلمت علي بإقبال استهجنت حرارته ، قلت سوى زبونة عابرة لصالون تتدرب فيه . ولم تحيني ولو مرة في الفندق أو الصالون .

انفلت الشابان خارجين من المكان حين ركضت إلينا وبسرعة مريبة فزادت شكوكي .

قلت لنفسي كانت تواعدهما وخرجت مني ، وربما خشيت أن أتحدث عما رأيت في مكان عملها ، فأقبلت تظهر لهفة ليست من

عادتها معي في الفندق .

كرهتُ طفلةً بين شابين قبيل العصر في مكان خال ووضع بدا مريبا ، واثقين كأنا بحيطانها أو يهمان بإمساكها ، ثم ينسحبان مسرعين حين وصلنا . . وكرهتُ فيها طفلةً صغيرة تبكر إلى هذا .

كنت قد سمعت ورأيت قصصا عجيبة عن فتيات صغيرات يواعدن الشباب والسياح . وقد واجهت المغرب مشكلة الأمهات العازبات صغيرات السن ممن غرر بهن ، وعزة صغيرة ووحيدة بين شابين في حديقة لم يكن فيها سواهم حين وصلنا .

لم أبدِ اهتماما بلهفتها ، ولم ألتفت إليها وهي تلحق بي إلى الحمام الأثري وتحاول محادثتي . رددت تحيتها بلا تشجيع . . ولم أتوقف طويلا عند خيبة أمل بادية احتلت وجهها ، فهي قلقة بطبعها ، ولكني استهجنت «تكشيرة والعياذ بالله» من فتاة بالكاد تعرفني ، فقط لأنني لم أستجب لمحاولتها مرافقتنا والبقاء معنا في انشغالنا ، وأنا لا أعرف سوى اسمها ، وكرهت تصرفا منها .

استغرب الزملاء اندفاعها . . أنكرتها حين سألوني عنها ، ولم أشر إلى ما رأيناه .

اختفت عزة ، وأكملنا عملنا .

شغلني تعثر الوصول إلى حلقة اليهود في المغرب عن التفكير بعزة أو نظرتها الغاضبة وخيبة أملها ، فقد أربكنا وصول رد المستشار .

رفض اندريه أوزولاي المستشار الأول والأقرب من الملك الحسن

الثاني الحديث عن يهوديته ، فهو مغربي فقط ولا يقبل مثل هذا التصنيف ، وإذا كنت تريد الحديث عن اليهود فلأبحث عنهم بنفسي فهو غير معني بهذا » .

أسقط في يدي .

غاضبة أنا ، وأحس بالقهر وقلة الحيلة ، وقد عولت كثيرا على لقاء المستشار لعله يفتح أبوابا مغلقة .

صار لزاما أن نبحث عن اليهود بأنفسنا ، عن إبرة في كومة قش .

قررنا التوجه إلى فاس . . تصورها ، ونقضي فيها ليلتين ثم نعود إلى الرباط قبل أن نترك المغرب ، وقد نعثر على جالية يهودية صغيرة تقطنها وإن بدا أملا ضعيفا . . فالجالية الأكبر تسكن الدار البيضاء ، ولم نستطع الوصول إليها . فكيف سنعثر عليهم في فاس؟

تقلص عدد اليهود المغاربة من ربع مليون إلى أربعة آلاف فقط ، هاجر معظمهم طواعية إلى إسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ ، والمغرب من الدول العربية القليلة التي لم تطرد اليهود منها بعد قيام إسرائيل ، ولكن كثيرا منهم هاجر إلى أوروبا أو أمريكا .

اتفقنا على تصوير فاس ، وفي طريقنا نمر بمكناس فنصور آثارها ، ثم نجرب حظنا في العثور على اليهود .

توكلنا على الله وخرجنا مبكرين .

كان صالون التجميل مغلقا .

والطريق إلى فاس ممتع ، تبرز ثم تختفي على جانبيه غابات

البلوط والشجار المطاط والصمغ .

تأسست فاس عاصمة الدولة الإدريسية في المغرب عام ٨٠٨ م . واحتفلت عام ٢٠٠٨ بعيد ميلادها ال ١٢٠٠ وتشتمل على ثلاثة أقسام ، فاس البالي «القديم» وفاس الجديد ثم المدينة الجديدة . اختارتها اليونسكو عام ١٩٨١ كأحد مواقع التراث العالمي ، وهي أكبر مدينة في العالم خالية من السيارات ، فيستحيل على الحافلات عبورها لضيق طرقاتها وأدراجها ، وظلت الحمير والبغال والعربات الصغيرة وسيلة النقل في ممرات موصوفة بالحجر تعبق برائحة الزمن .

تتبدى للداخل من أحد أبواب سورها العتيق مدينة قاومت التاريخ بعراقتها ، ولكن رائحة روث الدواب وبغال العربات تعيد الزائر إلى أزقة التاريخ وممراته المعتمة .

وصلنا مع الثالثة عصرا . . لم أتصور جمال فندق جنان فاس في المدينة الجديدة حتى وصلته ، تحفة فنية رائعة بقاعاته الواسعة وديكوراته وأثاثه ، امتزجت فيه الطرز الأندلسية بمهارة الصانع المغربي ، فجمع الفنون الإسلامية ، كل قاعة تجسد طرازا وحقبة وفنا في أقواسها وأعمدتها ونقوش بلاطها وموزاييك جدرانها ومقاعدها وستائرها وسجادها وثرياتها الضخمة من الكريستال أو النحاس والزجاج الملون .

وجميع مطاعم الفندق تغلق مع الثالثة ، ولا طعام غير ما يقدم في الكوفي شوب . والفريق يصر على وجبة مغربية تقليدية تعد

جوعهم ، وفي المدينة القديمة .

تأكدت من شدة إلحاح الزملاء أن الرجل لا يحتمل الجوع ، ولهذا قالوا إن الطريق إلى قلوب الرجال تبدأ من معدهم . ويصر الزملاء على إيجاد مطعم في فاس البالي مهما طال البحث .

مر بالمدينة الجديدة ، حديثة التخطيط والعمران ، شوارعها واسعة منظمة ، تركت فيها مساحات خضراء ممتدة ، ومبانيها شاهقة وكبيرة .

تصل السور الحجري القديم ، يلتف حول المدينة بأبوابه الثمانية . . ندخل من باب المفتوح ، نمشي ونسأل عن مطعم فيدلوننا ، نوقف السيارة حيث شاروا . . نطرق أبواب مطاعم فيردوننا بلطف ، كل مشغول بالتحضير للعشاء في فترة تمتد من الثالثة وحتى السادسة والنصف أو السابعة ، ولم يقبل مطعم واحد كسر السائد في مدينة تعج بأفواج السياح ممن يعتبرون أن تجربتهم السياحية لن تكتمل إلا على مائدة تقليدية في مطاعم فاس البالي .

ورفع الزملاء شعارهم ولم يتنازلوا عنه «لا يأس مع الجوع» .

نسأل ونلحق الوصف فتردنا أربعة مطاعم بلطف وكياسة .

يرفع الشباب شعارا جديدا ، لا يأس في وجبة تقليدية حتى لو تضوروا جوعا ومهما طال انتظارها ، وأقسموا أن لا عودة إلى همبرجر في الفندق مهما حصل .

تفرع أبوابا متلاصقة في مبان قديمة متصلة كسور . يطل أحدهم من الأول معتذرا ، ثم الثاني والأخير .

ولم يكن الباب الضيق القديم ينم عما خلفه ، ولم أصدق ما رأيت . . مطعما أنيقا واسعا شديد النظافة ، تتدلى الثريات النحاسية الضخمة من سقفه المرتفع فوق كل مائدة ، بيت عريق من الطراز المغربي في بنائه وأثاثه ، وتدل مساحته الكبيرة على أنه كان سكنا لأسرة من طبقة اجتماعية مميزة ، هُدمَت جدرانه الداخلية فصار امتدادا واسعا ، وأقيمت على طرفه حمامات حديثة مجهزة بالعطور المغربية التقليدية ، والصابون النباتي ، والزيوت والمناشف الأنيقة المطرزة .

جدران المطعم وسقفه مزيج من القيشاني المغربي بنقوش جميلة ومطعّمة بالخشب الأرابيسك ، وتتوسطه نافورة كبيرة . . وفاس هي مدينة النوافير ، فيها أربعة آلاف نافورة تتغذى من مياه تتدفق إليها من وادي العيون في قنوات طولها سبعون كيلومترا .

مقاعد المطعم حول الموائد منخفضة مغربية الطراز من الخشب «الأرابيسك» . وتتوسطها طاولات كبيرة من النحاس المزخرف تستند على قوائم خشبية .

نستعجل الطاهي ، فظل يؤكد أن الوجبة شبه جاهزة ، فقط . . قليل من الصبر .

نشرب الشاي المغربي من النعناع وننتظر ، يهدأ الزملاء بحلاوة السكر ، ثم يتناوبون جولة لوم جديدة لأن أحدا منهم لم يتناول فطوره بعد فيما لا أيأس من بحثي عن اليهود ، وأركض وراء سراب بعيد

المنال . . ولا يجدي تذكيرهم بأنني مثلهم لم أتناول شيئا منذ الصباح ، وازداد اقتناعاً أن احتمال النساء أكبر من الرجال حتى في الجوع ، فقد بدأ المخرج «الزن» على الوجبة منذ توقفنا في مكناس لتصور جامعها وبوابة المنصور وسورها العتيق ، ومنذ لحظتها وكل منهم يؤكد لي أنه «سيقع من طوله» من الجوع .

تلح وتنادي الطاهي وتتذمر منذ جاوز انتظارنا ساعة ، وهو يتمهلنا حتى ضاق بأغراب تعاطف معهم ، ولكنهم لا يمهلونه . وبدأ يضيق بإلحاحنا .

ونتساءل بهمس : هل أراد استدراجنا ليجبرنا على الانتظار؟ أم أشفق علينا ونحن كالأيتام الحائرين الجوعى تُسَد في وجوهنا أبواب المطاعم؟

بل كان رضا الله ودعاء الوالدين .

تصير ونتحدث ونتمتع بجمال المكان حين دخل فجأة ، بلباسه المغربي التقليدي وطربوشه ، ربع القامة أبيض البشرة لامع الوجه ممتلئ الجسد ، تقدم ببطء مستغربا وجود زبائن في مطعم مغلق للتحضير . . تفقد المكان ببطء ثم مشى إلينا .

جلس على طاولتنا مرحبا . . وتفوح ملابسه برائحة عطر الورد ، رجل شديد العناية بهندامه . . نتبادل نظرات حيرى نستنكر تطفل زبون لا يعرفنا .

يسألنا من نحن؟

هرع الطاهي يعتذر عن قبولنا ، ويوضح أنه أراد فقط مساعدة أغراب جائعين .

- العراقشي بدوي إدريس

هو صاحب المكان ، ويعمل دليلا سياحيا في وزارة السياحة بجانب امتلاكه المطعم .

قدمنا أنفسنا .

والعراقشي ودود خفيض الصوت ، هادئ النبرات قلما ينفعل . يفيض وجهه بصحة بادية ، ويروي قصة تحويل بيت عائلته من أشراف فاس إلى مطعم .

حدثناه عن مهمتنا فأبدى تعاون من يعرف ، وذكرنا بواقع جئنا لتصويرها أصلا ، واستعداده لمرافقتنا في جولة الغد .

نستعيد بعض توازننا .

والطعام المغربي من أشهى الموائد العربية بخصوصيته وتفرده ، الكسكسي والبسطيلة واللحم بالزيتون واللحم بالبرقوق المجفف والطواجن ، ولأننا متلهفون وخائفون من الفشل ، طلبنا أطباقا فاضت عن جوعنا .

والحديث مع العراقشي عند وطلي .

أخبرناه عما أنجزنا في مكناس فأبدى استحسان خبير سياحي مطلع .

أحدثه عن مهمة سأعتبر أنني فشلت إن عدت دونها ، وعن

موقف المستشار أندريه لورولاي ورفضه لقاءنا .

قال بثقة وبصوته الهادئ الرزين وبعربية فصحى لا يتكلم سواها :

- أنا أحضر لك اليهود . . في أي فندق تقيمون؟

قلت لنفسي إنما هو دليل سياحي وصاحب مطعم ، وكلا العملين يتطلب كياسة ولطفا ، وهذا كلام رجل يتعاطف مع حيرتنا ودليل سياحي يبيع لنا الأوهام .

- في التاسعة صباحا سأكون مع اليهود في بهو الفندق .

أجزلنا البقشيش لطباخ عطف على حيرتنا ، ونستعد للخروج ، والعرائشي يصر على وعد منا بالعودة بعد التصوير ، لنتمتع بجمال المطعم ليلا ، وبخوره ، وغناء للوشحات والرقص والعزف على العود . . وهي دعوة مجانية ، فالغناء والرقص جزء من وجبة العشاء ، ونحن لم نستوف حقنا حين دفعنا ثمن الطعام دون أن نتمتّع بأي منهما .

نخرج بينما وفود السياح تتوافد إلى المطعم . . يرحب العرائشي بالقادمين بالفرنسية والانجليزية بود ودماثة ، وينشغل مع عازف العود ومطرب الموشحات . تودعه شاكرين وما زال يؤكد على عودتنا لاستيفاء حقنا ، ثم على وقتنا في الصباح .

ننشغل بتصوير مدينة فاس في الليل والتنقل بين أقسامها الثلاثة .

ندخل فاس البالي ، تَدافُع اجساد وبشر في سوق العطارين ، وأكياس من نباتات لتقوية القدرة الجنسية ، وأخرى لمداواة التقرح

وأمراض الجلد ، وأعشاب تبخيرات للزكام ، ونباتات عطرية وزيوت تفاذة وروائح عبقة للحمام المغربي الشهير ، وأعشاب لتجديد البشرة تشتريها أشهر الماركات العالمية للعناية بالبشرة وتباع بالغرام ، ويتجاوز ثمنه مئات الدولارات . . ومثله الزعفران ، وتشتهر المغرب بزراعته وتصديره ، ثم زهور اللافندر والورد الجوري والريحان ، وبخور بأشكال .

وتعرفت من بين أدوات الحمام المغربي ولأول مرة إلى «الحكاكة» ، وهي قطع من الألياف أو القماش لإزالة الجلد الناشف أثناء الاستحمام ، وقد فقدت فكرتها كثير من دور التجميل العالمية .

تتوالى الأسواق وتتصل في أزقة التاريخ الحجري ، تصور سوق الحناء ، ومصدرها السودان وحوانيت العطارين غرف صغيرة متصلة ، بضاعتها تتكدس حتى أبوابها . . وأوراق الحناء يابسة أو مسحوقة ، وعلب بلاستيك من مختلف الأحجام للجاهز منها . . وتتدلى شموع بألوان وأحجام بين أدوات لحفل الحناء التقليدي في حفلات الزواج ، ولا تستغني المغربيات عن الحناء في صبغ الشعر ، بخلط مسحوقها بالزيت وقشر الرمان للألوان الفاتحة ، وبالشرمس وزيت الزيتون للون الأسود ، كما يستعملها الفارية في دباغة الجلود وصبغ الصوف لألوانها وثباتها ، كما يعتقدون بقدرتها على شفاء الحروق والجروح وتفرح الفم .

تدخل سوق العروس وتنتهي بسوق الجلود وتشتهر المغرب بصناعة الملابس والأحذية والحقائب الجلدية الراقية . . تنتشر رائحة

الدباغة النفاذة ، وتتدافع الأجساد في أزقة التاريخ . نشرب عصير اللوز ، وهو يُقدَّم للضيف العزيز . . والمغرب هي بلاد اللوز ، ومن سحوقه تُصنع أطيب حلوياتهم «كعب الغزال» ، ومذاقها أفضل من المارزيبان أو «عجينة اللوز» التي تشتهر بها دول أوروبا خاصة ألمانيا .

ونعود إلى الفندق منهكين .

يوقظني هاتف غرفتي . . ويخبرني موظف الاستقبال أن ضيوفي ينتظرون في بهو الفندق .

أصر في دهشتي أنني لا أعرف أحدا في المدينة ، وأنه أخطأ برقم الغرفة ، فيسألني عن اسمي . ويؤكد أنهم يطلبونني أنا . . ثم لسمعه يجادل أحدهم ، ويطلب منه أن يحدثني :

- أنا الصراتشي الإدريسي ، صاحب المطعم وسمي ابراهام الصباغ . . كما وعدتك بالأمس .

أرتبك وأعتذر وأطلب مهلة لاستعد فقد نسيت وعده لأنني لم أحتفظ على محمل الجد . ويقول بلطفه وكياسته إن الصباغ في عجلة فعنده عمل ضروري ، ولا يمكنه أبدا أن يتأخر عن الحادية عشرة .

التاسعة تماما!! ودون تأخير؟!

أستعد دون تفاؤل أو حماسة ، فماذا أفعل بصباغ؟ وأية مصداقية له ليجيب عن كل ما في رأسي من أسئلة؟ وهو مجرد دهان لا مصداقية لأحكامه في مسائل شرعية أو سياسية تدور في ذهني ، وسيتحدث عن انطباعات شخصية فقط ، ولن يكفي كضيف واحد

في حلقة مدتها ساعة؟ ولا بد أن العرائشي طمع بما وعده الإنتاج به فجاءني بصباغ ليحدثني عن تاريخ اليهود وعلي أن أستبدل لقاء مستشار الملك بحديث من صباغ في فاس؟

هي خيبة أخرى تلازم هذه الحلقة . . لأؤكد لنفسي .

أفكر بطريقة للاعتذار وأمشي بلا حماسة .

- أبراهام الصباغ حاخام الجالية اليهودية في المغرب .

أستدعي فريقا ما زال نائما .

نسجل لقاء مع كليهما ، يروي الحاخام الصباغ تاريخ اليهود في المغرب وتطور التشريع واختلاف مذاهب الفرق اليهودية ومعتقدهم ورؤيتهم لدولة إسرائيل . ويحكي العرائشي عن علاقة اليهود التاريخية بأهل المغرب ووجودهم في فاس وحسن الجوار مع المغاربة المسلمين المحافظين ، وعن أماكنهم وتراثهم .

يسبقنا الحاخام الصباغ ليلتقي جاليته بلقائنا .

تتحقق المعجزة .

كان يوم «الهيلولة» أي عيدا يهوديا دينيا ، لمجتمع الجالية فيه قريبا من مدينة الصويرة ، المكان الأصلي ليهود المغرب بعد طردهم من الأندلس ، ويحتفلون بذكرى أحد أوليائهم «حاييم بنتور» أو حاييم الصباغ ، يحضرون من الدار البيضاء والرباط وفاس إلى ضريحه للصلاة وتقديم النذور . وزيارة الأضرحة عادة وطقس مغربي يمارسه المسلمون أيضا ، فهم يعتقدون بقدرة الأضرحة ويؤمنون بعجائبها ،

ولديهم ضريح له قدرة تزويج العانس ، وآخر يضمن حب الزوج أو الحبيب ، وثالث له قدرة إنجاب الذكور .

اشكر الله .

صورنا احتفال اليهود بوليهم حاييم بتتور . . في طرف حديقة كبيرة مسورة ومعتنى بها وعليها حراسة حكومية ، يرتفع ضريح الولي من حجر أبيض ناصع ، وفي وسط القبر الضخم فجوة لإشعال النار ، يصعدون إليه بدرجات قليلة ، وزرعت حوله الورود ونباتات الزينة ، وأشجار الحديقة عتيقة وارفة ، ويحيطها سور مرتفع وبوابة حديدية ، وفي جدار الضريح أوراق قديمة وأخرى حديثة يكتبون فيها أمنيات وطلبات تحتاج شفاعة وليهم لتحقيقها ، وأسماء أبنائهم الغائبين أو من يحبون ، لتحل بركة الولي عليهم .

يتلو الحاخام الصباغ دعاء فيرددونه ، ثم يقرأون صلواتهم وهم يهتزون ، يهود من جميع الأعمار يغيب عنهم شباب العشرينات فمعظمهم «يقرأون» أي يتعلمون في الخارج خاصة فرنسا ، ومعظم الجالية اليهودية تتحدث الفرنسية والعبرية ، وقليل منهم من يعرف العربية باللهجة المغربية .

وزعوا كوشر الدجاج واللحوم على كل الحاضرين فأكلنا معهم ، وقضوا بضع ساعات يتسامرون ويتبادلون الأحاديث وأخبارهم . . سجلت للعائلات مع عدد منهم . . نقيب الأطباء المغاربة «ديفيد جوباني» ، خرج أجداده من الأندلس يوم طُرِدَ الإسبان العرب واليهود

من بلادهم على دفعتين ، فكانت المغرب ملاذهم لقربها . . درس الطب في فرنسا ، وهو لا يتكلم العربية حتى المغربية المحكية ، لكنه أكد أن التسامح الإسلامي ساعده في أن يكون طبيبا للأطباء ، و«بالتأكيد لكفاءتي» قال متفاخرا . ولكنه تضايق جدا حين سألته إن كان يتبع الشرع في تعامله مع زوجته الحامية البارزة وخريجة السوربون؟ وبلا تردد قال نعم . . فهو يعاملها حسب الشرع حين تحيض ، لا تشرب من مائهم ، ولا تنام في فراشهما ، ولا تلمس شيئا في بيتها لأنها نجسة . وحين سألت زوجته إن كان ذلك يضايقها ، أجابت «إنه الشرع» .

سجلت لقاء آخر مع الدكتور «جويجر» وهو طبيب عام وأطفال ورئيس الجالية اليهودية في فاس ونقيب أطباء فاس وضواحيها ، فروى قصة وصوله واختياره نقيبا ، مما يعكس التسامح الديني بين أطباء المغرب .

عند بوابة ضريح الولي إذ تخرج استوقفني . . رجل قصير القامة في أواخر الخمسين ، فاجأني بإتقانه العربية بلهجة أهل القدس ، قال إنه هاجر إلى فلسطين من بولندا صغيرا ، ويعمل طاهيا في الكنيست ، ويأتي لزيارة ضريح الولي والاحتفال بالهيلولة في المغرب كل عام . قلت إنني ولدت هناك ولكنني لا أملك حق الإقامة ، فضحك ووافق وهز كتفيه (سي لا فيه c'est la vie) . . . إنها الحياة .

هكذا بدأت تكتمل ملامح حلقة ظننت أنها مستحيلة .

ونكملها بتصوير الحي اليهودي بجانب القصر الملكي في فاس .

حين طرد الإسبان العرب واليهود من الأندلس فروا إلى المغرب القريبة وسكنوها ، وقد أقام الملك محمد الرابع حيا لليهود يبدأ من سور قصره في فاس العاصمة ، ليكونوا في حماه ثم في رعاية الأسرة العلوية الملكة . . ولكن كثيرا منهم اختار الهجرة إلى إسرائيل بعد قيامها ، باعوا بيوتهم فتحولت إلى متاجر ومصانع تقليدية ، وظلت تسمى جادة (حارة) اليهود . وهناك جالية صغيرة منهم تسكن مدينة الصويرة ، وهي مدينة سكنها أجدادهم وتخصصوا وبرعوا في صناعة الأسرة والأثاث من الخشب والنحاس ، وما زال بعضه يحمل نقوشهم ولجمة داوود . . وقد عاد أحفاد كثير من يهود الصويرة من إسرائيل للبحث عن ممتلكاتهم وشرائها من جديد ، أو امتلاك عقار آخر في مدينة حفظت أسلافهم .

نلتقي والعرائشي عند البوابة الزرقاء .

نصور الزوايا الدينية . . عشرات من الطرق والزوايا في فاس وضواحيها ، نلج زاوية التيجاني ، فالشاذلية ، يتحلق المتسولون وأصحاب العاهات حول كل غريب ، يبعدهم العرائشي فتتبدى لنا سطوته واحترامه . . نساء مع أطفالهن جئن للزيارة أو الدعاء أو وفاء لنذر ، ورجال في حلقات يقرؤون ويترنحون في تجل واضح .

وفاس هي أحد أهم مراكز الصوفية . . توغلت الصوفية المتسامحة

في المغرب عن طريق الحجاج العائدين من بيت المقدس ، وتشكلت كمذهب في العهد الموحدي في القرن الثالث عشر الميلادي ، وحكمت البلاد كنظام منذ القرن الخامس عشر . . وقد أسهمت الصوفية في ظاهرة التسامح مع الآخر والانفتاح والوسطية والاعتدال في تقبل المختلف رغم التدين والهوية الإسلامية .

تقوم الصوفية على الزهد في الدنيا والترفع عن صغائرها وابتغاء وجه الله والاتحاد بالروح ، ثم الاعتكاف والاعتماد على الشيخ في التزود بالإيمان . ولكن «الشيخ» في الصوفية سلاح لمنتقدي فرقها ، وما أحدثهم أن فهم النص والحديث وإعمال العقل ليس قصرا على الشيخ . . بينما يدفع نابهو الفرق بأن «من لا شيخ له فشيخه الشيطان» . وأشهر المتصوفين المغاربة هو الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي ، وقد انتقل بعلمه إلى بلاد الشام ، فنشر مذهبه وطريقته حتى توفي ودفن في دمشق .

نسير في طرق مشاها مفكرو الإسلام ومتصوفوه .

نصل جامع القرويين الشهير ، بنته فاطمة الفهرية في «عدوة القرويين» ، ودفعت فيه كل ما تملك تقربا من الله عام ٨٥٩ م ، وحذت أختها مريم حذوها فبنت جامعا في «عدوة أهل الأندلس» . . وتوسع جامع القرويين على مراحل ، بدأ بنلك الحكام الزناتيون ثم المرابطون فامتد على ثلاثة آلاف متر مربع ، وفيه صحن صمم على طراز صحن الأسود في قصر الحمراء في غرناطة . . يتدفق ماء الوضوء

من أقواه أسود حجرية تحيط الصحن . ويتميز المسجد بصومعته المربعة ، وهي أقدم منارة مربعة في المغرب العربي ، وبطراز معماري أندلسي يزخر بالقباب والأقواس ، وزينوا جدرانه بالآيات القرآنية والأدعية ، أما الحكام الموحدون فهم من علقوا الثريا الكبرى في سقفه وما زالت . . وفي باحاته عدد من الساعات الرملية والشمسية لضبط مواقيت الصلاة ، وألحقت بالمسجد جامعة القرويين ، وقد دخلت كتاب جينيس للأرقام القياسية كأقدم جامعة في العالم ما زالت تعمل .

درس في جامع القرويين عدد من كبار العلماء ، البابا سيلفستر الثاني الذي أصبح بابا للفاتيكان من ٩٩٩-١٠٠٣ ، وهو الذي نقل الأرقام العربية إلى أوروبا لتصبح أرقامهم ، بينما تحول العرب إلى الأرقام الهندية لتصير أرقام العربية . ومن علمائه أيضا ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع ، وموسى بن ميمون والشيخ ابن عربي وكثيرون .

يحضر العرائشي اللباس الأبيض التقليدي للرجال فارتديه فوق ثيابي . ندخل الجامع بسطوة العرائشي ونبدأ العمل .

يتحلق المريدون والطلاب حول شيخهم في شبه دائرة ، بينما يجلس هو مستندا إلى سارية من المسجد العتيق ، يشرح ويفسر ، فيواظبون أو يسألون .

في هذا الجامع درس ابن الشيخ الفيلسوف الرئيس موسى بن

ميمون اليهودي القرطبي ، وكان من أعظم الأطباء في عصره ، ولكنه غادر الأندلس ليصبح طبيب القائد صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام .

يضيق الدارسون بحركتنا ، فنعمل بسرعة في اعتراضهم ونخرج .

نودع العرائشي ، يتسلل الفريق إلى شقة الخاخام أبراهام الصباغ في منطقة فاس الجديد كل على انفراد ليقرأ لهم بختهم ومستقبلهم ، والعرافة ارتبطت باليهود من قديم ، وشهرة اليهود السمرة في عمل الأحجبة وكشف الطالع في فلسطين معروفة ، واليهود السمرة هم فئة دينية ضد قيام دولة إسرائيل ، وهم منبوذون من حكوماتها .

وزع علينا الخاخام الصباغ ورقة رقية يهودية مشهورة مكتوبة بالعبرية ، وفي وسطها كف لجلب الحظ ومنع الحسد .

نعود في الصباح إلى الرباط .

كنت سعيدة وأنا أدخل صالون التجميل فجفلت عزة وأشاحت بوجهها في غضب وهرولت إلى المطبخ حين رأتني ، ورفضت أن تساعد الكوافيرة ، بل وتعالى احتجاجها .

هذه الطفلة لحيرتي ، تغضب مني ولا تطيق النظر إلى وجهي كأنني من باقي أهلها .

تغسل صاحبة الصالون شعري ولا زالت عزة تهمهم بما لا أدري .

تسألني الكوافيرة فجأة :

- لماذا فعلت هذا بعزة في باب الأودايا؟ . بعزة يتيمة ، مات

والدها وتركها مع إخوانها الخمسة لأم لا تعمل ، فأخرجتها من المدرسة رغم تفوقها لتساهم في إعالتهم . . ويوم رأيتها في الحديقة ركضت لتحتمي بك ، فقد خرجت أنا لأمر هام وأغلقت الصالون ثم تأخرت ، وليس لها مكان تذهب إليه ، فهامت في الحديقة تنتظر عودتي . وكان الشابان يضايقانها ويحاولان إمساكها حين وصلتم . . فأنقذها وجودك منهما ولكنك أنكرتها .

- ولكنني .

لم أستطع أن أكمل . . أنا والكوافيرة كدنا نضيع طفلة ، حين أغلقت الصالون دون أن نتركها فيه ، وأنا حين لم أنتبه للهفتها وفسرتها بريبة ظاهر الأمور ، وحاسبتها على اعتقادي وشكي .

لستعيد مشاعد لم أتبين حقيقتها في انشغالي بحلقة ضالعة .

كيف لم أدقق في لهفة طفلة تتفلت إلي؟ كان الشابان يحاولان إمساكها والتحرش بها في مكان خال من الزوار ظهراً ، وقد ضيقا عليها الخناق عند السور وكادا يظفران بها حين وصلنا ، ولكنها انسلت من بينهما وهي لا تصدق أنها نجت ، وهذا سر لهفتها وإقبالها علي . فقد اعتقدت أن حضوري مع الفريق سبب خلاصها وحمايتها . ولهذا انسحب الشابان بسرعة مريبة حين ركضت إلي ظنا بصلة لنا بها . كانت تحتمي بي بينما أظن بها الظنون وهذا ما يغضبها مني . (إن بعض الظن إثم) . .

عزة طفلة لم تجد مكانا يؤويها والصالون مغلق ، وربما لم يكن

لديها ما تأكله ، أو ثمن مواصلات إلى منزلها . والحديقة الأثرية قريبة من الفندق ، فالتجأت إليها .

يتنامى شعوري بالإثم وأحاول التكفير عن ظني وخطأي ، ومثل القادرين أحاول مداواة جرح الكرامة والخذلان ببعض المال ليعوّض عن ثلوب النفس وجرحها .

قبلت عزة على مضض وبعد إلحاح طويل . . ترددت ، ثم غلبتها حاجتها ، ولكنها ظلت غاضبة وتشيح عني .

عدت في اليوم التالي لأعتذر لها . . كان الصالون مغلقا . . فاقتربتُ وبي حسرة لأنني لم أشرح لتلك الصغيرة ملابسات ما حدث .

أذكر عزة كلما تذكرت الرباط ، وأرتجف حين أقرأ عن ظاهرة الأمهات العازبات في المغرب ، تدفعهن الحاجة والجهل إلى الخطأ ، وأستعيد صورة طفلة تركض إلينا فأظن بها الظنون ، فإذا هي يتيمة تحتمي بالحديقة العامة وبي ، وهما شابان يتحرشان بها وكادا يظفران ببراءتها حين سألتنا عناية الله . . ويخزني ضميري كلما قرأت عن الفقر والنساء ، وعن استغلال فتاة أو الاعتداء عليها ، وأدعو الله أن يكون قد جنب عزة كل مكروه .

ولا أدري أين أضحت عزة في قسوة الحياة ، ولكن صورتها وهي تركض بلهفتها إلى حية تؤلم الذاكرة . . وكلما ذكرت المغرب .

■■

راكبة من الدرجة الأولى

يهم ضابط مطار الملكة عليا، الدولي بتدقيق وتقليب جواز سفري وتذكرة الطائرة عند مدخل المسافرين حين علت ضجة خلفنا . . التفت فظل يتابع . . كانت امرأة تحتج على عامل المطار غاضبة ، ولمجادلته ولمنعه من جر عربة حقائبها ، وهو حائر معها .

كان الوقت قد تجاوز الثانية بعد الظهر بقليل .

ابتسم الضابط إذ فهم . . تابع تفتيشهما بينما أوراقي في يده .

رأيتها .

حائرة وغاضبة ورفض الدخول أو التقدم .

سيدة في نهاية الخمسينات ، ترتدي ثيابا طويلة ، وتغطي رأسها بمنديل ، وتؤكد لعامل المطار أنها درجة أولى ، وهو متمكن لأن مسارها ليس من هنا ، بل من مدخل خاص ، وعليه أن يسأل ويأخذها إليه ، وتحاول دفع العربة لتخرج لأنه «غلط» أن تدخل مع الناس ، فالدرجة الأولى لها بوابتها ، وهو يسحبها إلى مدخل «العاديين» ، ولن تتزحزح قيل أن يذهب بها إلى المدخل «الثاني» الصحيح .

والحمال حائر مثلها ، ويحاول أن يشرح لها فلا تسمع ، ويؤكد أن

مدخلها من هنا فترفض ، ويقسم على ما يقول لأنه يعرف أكثر ، فتتوقف ، ويحاول إقناعها فتحتار لإصراره ، وتميل ببصرها تحاول أن تفهم ، ولا تدري من تسأل .

يبتسم لها الضابط ويستفسر عما يزعجها .

يؤكد لها الضابط أن العامل على حق .

لا تخطو السيدة رغم تأكيده ، وتهمهم لنفسها ، «بس الدرجة الأولى إلها مدخل لحالها» . ينفد صبر العامل ويثقل بصره بين الضابط وامرأة عنيدة تضيع عليه بقشيشا من راكب غيرها في ساعة تدفق المسافرين .

يرجوها : يا خالتي ألا تصدقين حتى الضابط؟ .

طلب الضابط أوراقها ، تأكد منها وأرجعها لها . . وأشار بيده أن تدخل ، فظلت مترددة .

تذكر أنني ما زلت أنتظر . . قلب أوراقي من جديد :

- يا حجة . . . الأخت مسافرة معك؟

تسألني بتوجس واستعلاء إن كنت «درجة أولى»؟ .

ابتسم . . لأؤكد أن تذكرتي كذلك .

همست لها إذ تعبر نقطة التفتيش أن هناك مدخلا خاصا . . صحيح ، ولكنه فقط لركاب الدرجة الأولى في طيران الملكية الأردنية ، ونحن مسافرتان على الخطوط القطرية ، ولهذا فعلينا أن ندخل مع الآخرين .

كنت أتوجه من عمان إلى الدوحة للمشاركة في مهرجانها الثقافي ، والدوحة مدينة عرفتها وعشت فيها قبل أن يكون لها كورنيش ثم رأيتها تتحلى به ، وكانت شجيرات العوسج تزين رمالها وحيوان الضب البري والجمال السائبة تسبح طرفها ، الشمال وطريق سلوى إلى السعودية ، قبل أن تنقلب رمالها مزارع خضراء ، وتغطيها بيوت البحر والفيلل والحدائق والقصور والأسوال ، وعايشت ردم البحر حين استفادوا من تجربة هولندا في توسيع أراضيها فصارت منطقة «الدفنة» سكنا لكبار الموظفين والفنادق والأبراج ، وقضيت فيها شبابي وأنجبت أولادي وسعدت بصداقات تتجاوز صلة الرحم مودة وعشرة حسنة ، وأسهمت ما استطعت ببرامج سياسية وثقافية إشكالية واجتماعية نال بعضها جوائز وتقديرا وأذيع من محطات عربية عدة حين وزعه اتحاد الإذاعات العربية ، وبرامج إشكالية كلفتني وظيفتي ذات يوم حين عرضت على الهواء مباشرة قضية موظف مصري يسكن في بيت آيل للسقوط ، بينما الدوحة قد تقدمت إلى مسابقة أجمل المدن . وعرضت صورة للبيت التقطها المذيع القطري جاسم عبد العزيز وكان حينها متدربا . وطُلب إلي الاعتذار عما عرضت ، فرفضت . . واستغني عن خدماتي لمدة عام ونصف . فعدت إلى الأردن حيث لم يسمح لي بالعمل للاعتقاد بأن لي انتماءات سياسية أدت إلى فصلي من عملي ، فلا أحد يصدق أنها مجرد قصة بيت «مشقق» عرض في برنامج .

ولكنهم طلبوا عودتي من جديد حين أصبح الإعلامي سعد الرميحي مديرا للتلفزيون . فعدت عام ١٩٨٨ . ومن الفارقات أنني عشت في الدوحة وخرجت منها ولا أعرف مكان هذا البيت . وقد أثار فضولي حينها ضجة كبيرة فالأمر لا يستحق قرارا تعسفيا كهذا ، ولكن الجانب المشرق لذلك الظلم أنني عدت إلى كتابة الرواية حين شغلني الإعلام عنها . وكتبت ونشرت روايتي الأولى «شرق غربا» أثناء فترة الفصل . ثم خبرت سنوات التقشف استعدادا لمشاريع الغاز ، وخرجت مع الألفية الثالثة قبل أن تتحول الدوحة بثروة الغاز إلى مدينة أخرى ، امتدت وازدهرت واختلفت حتى على من بقي فيها .

كنت سعيدة وقلقة ويتملكني شعور من يلتقي من أحب بعد انفصال ، ليكتشف ما غيرته فيه الأيام .

أنهينا إجراءات المطار ، ثم صحبت السيدة إلى الصالة الخاصة .

شيء ما في هذه المرأة له خصوصية لا أستطيع تحديده .

تَفَحَّصْتُ صالة الدرجة الأولى ومن فيها . . فارتاحت نفسي لها .

أقبض على نظراتها مرات وهي ترقبني خلسة وفي صمت . .

تتبعني ، تختار من الوجوه ما أتشفيه . . طَلَبْتُ عصيرا ثم شايا مثلي ، ثم جلست قبالتي .

اصطدمت عيني إذ أتفحصها فأدارى حرجي . . وأبتسم لها في ود .

بدت لي كأنها تستجمع ذاتها وتتردد في بدء حديث ، وتقاوم

رغبة فرد نفسها أمام امرأة قابلتها صدفة .

وما سنقوله بتفاخر ، إنما هو محاولة لاستعادة هيبتها أمام أخرى توسمت -ربما- أنها تعرف أكثر ، أو لتعتذر عن موقف أحرجها حين اختارت بينما عامل المطار على حق :

- ابني مدير شركة كبيرة في دبي ، طلبني قبل الشهر لزيارته ، وقال لا يمكن أن أسافر أنا وزوجتي وأولادي درجة أولى وتسافر أمي على درجة «عادية» . . وحين وصلت سألوني عن السفر بالدرجة الأولى ، أخبرتهم أنني تعرفت إلى عائلة مسافرة وبقيت مع الناس ، ضحكوا علي «وعملوا القصة مسخرة» لأنني لم أعرف أن للدرجة الأولى مدخلا خاصا وقاعة للمسافرين ، قالوا دفعنا زيادة عشان ترتاحي مش تظلي مع «العاديين» ، وظلوا طوال شهرين وكلما اجتمعوا يتندرون بها «وطلّعوها على جلدي» هم وعائلاتهم وأصحابهم حتى رجعت من دبي . . وابني الثاني مدير شركة كبيرة مثله ، وانتقل مع عائلته إلى قطر ، ويريدني أن أزوره وألفّ الدنيا ، ولم يقبل إلا أن أسافر على الدرجة الأولى ، وأنا لا أريد أن «يعملوني مسخرة» مرة ثانية .

يتجمع في عينيها حزن عميق يتنامى ، وأسى لجرح يبدو طريا في استعادة الحدث .

أطيب خاطرها . . ولأكد أن أبناءها أخطأوا حين لم ينبهوها إلى ميزات تذكرة السفر ، ولا يحق لهم أن يسخروا من غلطتهم معها . . ثم

إن موظف شركة الطيران مسئول أيضا حين اعتقد بأن المسافر يعرف ميزات التذكرة ، وينسى أنه قد يستعملها للمرة الأولى ، فلا يشرح له بطاقة دخول الصالة ، وأن ما حدث خطأ من كليهما ، وقد يتعرض له أي مسافر .

أراحها تعاطفي لحظة . . تُراجع ما قلت ، ثم ترفض اتهامي لابنيها ومجاملتي لها على حسابهما بحزم .

تؤكد أن أيا منهما لم ينبهها لأنهما تعودا أنها تعرف كل شيء ، فهي من تدبرت أمر دراستهما وأصرت على دخولهما الجامعة ، وأشرفت على زواجهما ، وبناء البيت وتأثيثه ، وأنها «تدبر حالها» في كل المواقف ومع كل جديد أو قرار ، ودون أن ينبهها أحد .

حتى ابنتها الوحيدة لم تعرف ميزات التذكرة رغم أنها متعلمة ، ولكنها حين سافرت في دورة كانت على الدرجة «العادية» .

يشرق وجهها بالحب والفخار ورغبة إبهاري إذ تحدثني عن ابنتها . . تخرجت من الجامعة الأردنية «بيولوجي» تلفظها بالانجليزية . . ثم تزوجت وأنجبت ، ولكنها لم تعمل بشهادتها ، بل مع الدكتور . . . أشهر طبيب جلد ، «ألا تعرفينه »؟

ولم أكن أعرفه .

تبتهج وهي تؤكد أنه يعتمد على ابنتها في كل شيء ، وأنها صارت «الكل في الكل» في عيادته ، وكثيرا ما تقوم بالعمل نيابة عنه .

وتطيل وهي تستعرض قدرة ابنتها على كسب الزبونات ، فمن تجرب «شطارتها» لا تقبل استبدال مهارتها أو ترضى بسواها ، فهي تمحو آثار الأيام والسنين عن الوجوه والأجساد ، وتعتد بإنجليزية سليمة أسماء عمليات ترميم وجوه النساء ، الليزر وإزالة الشعر والكلف وشد البشرة وإزالة السواد تحت العين ، وحشو التجاعيد «بالبوتاكس» ، ونفخ النفخين الفيللرز ، وإزالة الدهون والتمش ، وكله مثل السحر وبلا جراحة . وتقسم إن ابنتها تعالج أي عيب في البشرة ، «أي والله بصير وجه العجوز ملس وصافي مثل صبية في العشرين ، لا تمش ولا حبة ولا كلف ولا تجعيدة» . . دربها الطبيب بنفسه ثم أرسلها في دورة إلى فرنسا مع شركة مختصة بأدوية التجميل وآلاته ، وحين عادت استلمت العمل ، «وماش ملحقين شغل اللهم زد وبارك ، كل بنات عمان ونسوانها عندها» .

أتفحص وجهها فتبتسم .

وبشرتها بيضاء لامعة لا يعكر صفاءها شائبة ، تكسوها طبقة من المكياج الخفيف لا تتبينها العين للوهلة الأولى وضعت بحرفية ، وأظافرها قصيرة بلا لون وإن شذبتها حديثا عناية خبيرة .

امرأة تصر على محادثتي . . ولها قدرة على حوار متصل أحادي بينما لا تتيح لي إلا أن ألعز رأسي أو أبدي شهقة تعجب أو استحسان ، ولم يكن يعنيها إلا أنني أصغي . كانت ذاكرتها مثل إشارة مرور علقت على اللون الأخضر فظل من عليها مندفعا لا يتوقف أو يتمهل .

تعود وتسهب في وصف عنوان الطبيب ، لتحدد لي الموقع ، والطريق والعمارة والطابق . وتؤكد أنه أفضل أخصائي جلد في عمان كلها ، وأن لا مثيل لشطارة ابنتها ، ولا شك في النتائج المضمونة لكل من لجرب خبرتها .

ألحس وجهي . . تهتز ثقتي بشكلي أمام عينين كالجمهر تفحصان وجهي ، وكلمات تحرضني أن أجرب .

لا أبدي اهتماما فتتوقف عن الإلحاح .

امرأة لماحة شديدة الذكاء سريعة التعلم قلت لنفسي . . تنم ملابسها عن عناية ومعرفة بتناسق الألوان وقدرة على الشراء .

أحضر بعض الفاكهة من البوفيه وقطع الكانبيه ، تفعل مثلي ، يتوقف سؤال ألمه في عينيها عن كانبيه السلمون ويمنعه خروجها مني .

تقطع صمتا لا تسمح له أن يدوم ، تبدأ جولة ثالثة من التفاخر في صمتي . . امرأة قادرة على حديث لا يتوقف . هذه المرة عن قدراتها هي .

تسكن جبل الأميرة وحمة في حي الزرقاء الجديدة ، ضاحية مرتفعة حديثة تختلف عن مدينة الزرقاء القديمة ، لا تعرف زحامها أو اختناق مبانيها أو عصف رمالها ، تلك مدينة صحراوية نشأت عشوائيا من الطوب والخرسانة حول معسكر للجيش والمستشفى العسكري على طرف الصحراء . بينما وضع تصاميم عمارات وبيوت الحي الجديد مهندسون ، وشيدت بالحجر على جبل مرتفع ، والشوارع

واسعة والبيوت كبيرة ولها حدائق خضر .

تصف بيتها . . من حجر أبيض وسطحه مغطى بقرميد ، كبير من ثلاثة طوابق ، تسكن الأول مع زوجها ، والعلويان لولديها . . يقضون فيهما إجازة الصيف ، ثم تغلقهما حتى عام آخر .

يمر الوقت بطيئا مع حديث متصل وامرأة لا تعرف الصمت ، أضيق بها إذ تفرد ذاتها أمامي باستعراض . . وألحين فرصة تتشاغل فيها لأقرأ كتابا خططت لإنهائه في السفر و«اللهم طولك يا روح» . .

لا مجال في تتابع حكاياتها . . امرأة لا تحتاج لمسئلة لتبدأ ، وتسهب في تفاصيل لا تعنيني وإن شكلت حياتها . . كيف أشرفت على بناء البيت ، وناقشت المهندس ورقبت العمال ، وزرعت حديقة وأشجارا مثمرة تذكرها بخضرة قريتها «بورين» من فضاء نابلس . . وكيف زوجها أهلها ولم تتجاوز الخامسة عشرة من قريب يكبرها بعدة سنوات .

يغيب الزوج عن حديثها .

أسأل عمن أوصلها إلى المطار ، فلعلي أستشف شيئا من جوابها ، قالت إنها طلبت سيارة أجرة وجاءت وحدها .

لم يعد أمامي سوى المباشرة ، سألتها إن كان زوجها حيا .

تؤكد بلا كثير حماسة أنه «موجود» وفي صحة جيدة .

وامتعضت حين سألتها لماذا لا يسافر معها ، هل هو مريض؟ . . أجابت أن صحته «حديد» ولكنه لا يحب السفر (قال ما يحب

لمسافر ، وأنا ما بدي أنحبس معه ، لولادي بدهم نشوف الدنيا بعد تعبنا ، وهو قال لا . . قلت بلاش خليك في الدار أنا بروح) . .

تضحك . . ولواظبها .

تسرح بفكرها قليلا . . ثم يعتذر صوتها : . «حاولت معه بكل الطرق ، المليح والعاطل ما في فايدة . . ما بحب ينبسط ، بده الأكل والشرب . . والنوم » تبتسم «وأيام عمرنا بشمر ، قلت لا أنا بحب لشوف الدنيا ، خليك أنت في الدار» .

تصر أنه يفضل البقاء في المنزل ، يرعى الحديقة ، لا يزور ولا يزار منذ ترك عملا زاوله طوال حياته «معلم حجر نخب أول» ، ولأنه ماهر نقله المهندسون من بوربن إلى عمان ، فعمل في بناء أكبر عماراتها ومبانيها الحكومية وقصورها ، جامن معه ، وسكنت الزرقاء القديمة ، وكان يغيب طوال النهار . . فتحملت وحدها مسؤولية البيت والأولاد ودراستهم .

تكسو السعادة ملامحها إذ تعدد بفخر سنوات تخرجهم وتخصصهم . . ولأنهم مدراء شركات طلبوا من والدهم التوقف عن عمل مضن وتكفلوا بمعيشتهما .

استكثر الأبناء عملا مرهقا لا «يليق بوالدهم» ، فهو يكد من الصباح حتى مغيب الشمس في وضع مدماميك الحجر المدقوق حسب خرائط المهندسين ، ونقش الحجارة وألوانها ، ودخله بسيط لا يتناسب وتعبه .

يتم البناء الراقي في فلسطين والأردن «بالحجر» تنسف جبال الصخور بالبارود وتصير محاجر خاصة ، ثم يقطع الصخر بمقاسات وأشكال مطلوبة ، ويدق وينقش بأزاميل أو مهدات ، ويحتاج إعداده خبرة ومهارة . . واشتهرت قرية قباطية الفلسطينية بجودة صخورها وصلابتها ومقاومة لونها للزمن ، فظلت المصدر الرئيس لأفضل أنواع حجر البناء حتى شح صخرها ، ثم استخدموا حجر معان في طفرة العمران في الأردن والضفة الغربية . . ومعان هي مفتاح الجنوب الأردني وقريبة من البتراء ، مدينة الصخر الوردية ، وإحدى عجائب الدنيا ، وقد بقي صخر البتراء مقاوما للزمن شاهدا على حضارة الأنباط وعلمهم وإرادتهم ، نحتوا فيه مدينة لهم ، وصمموا لها أفضل نظام للري وتصريف مياه عرفته الحضارات . . والأنباط تجار بارعون ، صدروا القار إلى مصر من البحر الميت حين ظل البحر يقذفه على هيئة بركان مرة في كل عام ، ومثله نبات البلسان من مدينة أريحا ، وخليطهما هو أحد أسرار وصفة التحنيط الفرعونية المتعلة .

شربنا مزيدا من القهوة ، وتناولنا الفاكهة ، وأعلنوا عن تأخر الإقلاع ساعة .

لم تفكر تلك السيدة وفي أثناء حديث شبه أحادي امتد لأكثر من ساعتين أن تسألني ولو مرة من أكون أو لماذا أسافر للدوحة أو لمسن .

تركتها وانشغالها بنفسها وبالتفاخر .

قمت لأتناول جريدة من على طاولة الجلات والصحف لعل المرأة تترك لي بعض وقتي أو ربما تفعل مثلي . فابتسمت ولم تتحرك .

تشاغلتُ بتقليب صفحات الجرائد لعلها تصمت . . فوجئت بلقاء مطول معي في «العرب اليوم» تتوسطه صورة كبيرة لي ، نشروه قبل موعد جلدته الغيرة سلفا .

أقرأ دون أن أرفع بصري وألتفت النظر إليها . . أحس بنظراتها تتابعني ، وأدهشني أنها للمرة الأولى ومنذ التقينا لم تفقد ما أفعل .

سألتني فجأة «من صاحبة هذه الصورة» .

ولمت نفسي كثيرا لأنني ضحكت .

تؤكد أنها تعرفها «اسمها على راس لساني» ، ولكنه يغيب ، ممثلة مشهورة وتعرفها من التلفزيون «بس نسيت شو اسمها» .

قدمت لها الصفحة ، كتبوا اسمي تحت الصورة بخط بارز .

تتفرس فيها وتعيد الجريدة ، تبتسم وتؤكد أنها لا تستطيع تذكر اسمها!

لعلها لم تنتبه للاسم ، أو لا تستطيع قراءته بلا نظارة طبية .

وتلح أن تعرف .

هل كان غرورا أم إحساسا داخليا بالأهمية (الإيغو) . . ولكنه بالتأكيد شيء استكرته ولمت نفسي عليه لاحقا .

سألتها إن كانت صاحبة الصورة تشبهني؟

تفرست وجهي بعدم تصديق أو فهم لجرأة مسافرة تشبه نفسها بممثلة؟

أؤكد أنها أنا .

تعيد النظر . . كأنها اقتنعت .

وتنفجر المرأة في دهشتي باكية فيلتفت من حولنا . . لحظات . . تجفف دموعها ثم تسألني للمرة الأولى ماذا أعمل .

أخبرتها أنني كاتبة فعاودت بكاءها . . وأنا في حرج من وجوه تتابعها تبكي بحرقة ، وربما ظنوا أنني أسأت إليها أو قلت ما يزعجها . . وأنا حائرة في التعامل مع امرأة لا أعرف ماذا يبكيها في كوني كاتبة؟ أو في أن ينشروا لقاء معي في صحيفة؟

ولكنها لم تسألني عن اسمي .

هزت رأسها وجففت دموعها وقالت كمن توصل إلى حقيقة دامغة ، إنها تفهم الآن لماذا عطفت عليها وساعدتها ، فقد ظلت طوال الوقت تسأل نفسها لماذا أسمعها وأصبر عليها ولم أسخر منها . ذلك لأنني كاتبة وأقدر واحترم واحدة مثلها ، أما الآخرون فلا يضيعون وقتهم مع أمية لا تقرأ ولا تكتب . «فهو الأمي ما عنده مواضيع مهمة ، والناس بتزهق منه بسرعة ، وما حدا يهتم بسوالفه ولا بحب يسمعه ، بس لأنك كاتبة سمعتيني ، وبعدين زهقت مني وجبت جريدة . . معذورة حتى أنت زهقتي بعد شويه» .

أسقط في يدي . . اطيب خاطرها بعطف حقيقي .

حرموها من التعليم ثم زوجوها وهي في الخامسة عشرة ، وحين التحق أولادها بالمدارس طلبت من زوجها أن تفعل مثلهم وتلتحق بمحو الأمية . . رفض ومنعها من الخروج من المنزل . . «وأنا ذابحة حالي أقرا ، قلت بلكن بروح معي ، عنّد أكثر» . . حاولت إقناعه بأن ينتسبا معا إلى صفوف محو الأمية إن كان لا يريد خروجها وحدها ، فلا يجوز أن يبقيا جاهلين ويتعلم الأولاد . . فسخر منها . . «قال اهتمي بأولادك وبيتك وبلاش مسخرة . . كأني قصرت مع حدا فيهم ، قال بعد ما شاب ودوه على الكتاب ، أنا بيني بدون «قراية» ومش ملحق شغل ، وأنت ربي الأولاد أحسن لك ، كنت صغيرة ومتحمسة وذابحة حالي على العلم بس متعني ، والله العظيم ما بسامحه على عملته حتى لموت» .

تهدأ وتكمل بأن أولادها لم يعرفوا أنها أمية حتى كبروا ، «ظلت تجلس لتسمّع لهم دروسهم والمسطرة بجانبها ، إن تأتأ أحدهم تعرف أنه لم يحفظ جيدا «فأخيطه» ، وتطلب منه أن يحفظ ثم يعود إليها وإذا «كرج درسه زي الليه» تتركه يلعب أو ينام . «وكنت أحفظ دروسهم قبلهم ، تلاتتهم» تضحك معا .

لم يعرف أولادها أنها لا تقرأ ، وأذهلهم ولم يصدقوا حين كبروا واكتشفوا .

أسألها كيف يمضيان الوقت الطويل؟ وإن كان لهما هواية مشتركة؟ .

تحدق أمامها طويلا ، تتقلب دموعها وتجففها . . وتقول فتفعلني :

«أي زلة بس يغفى يدوّر على مرة ثانية . . بس يجري الفرش بإيده بغير مرته ، قال كبّرت ، كأنها بتكبر لحالها ، والشرع معاه . . قلت له تيجي عندي بس ما تلمستي ، تنام لحالك وتدير بالك على الدار . المهم ما يظل مع الزوجة الثانية ، وصرت أهتم بحالي ، بس بعد شو؟» .

تعذب نفسها باللوم حين أطاعت زوجا منعها من التعليم ، وأنها انخطأت حين رضخت له ، وكان يجب أن تصر حتى لو خرجت بدون أمره ومهما كانت نتيجة الإصرار «يعني مش عيب لو وحت أتعلم من وراه ، أنا مش رايحه لشي غلط . . ويا ريت أتمر معه أول ما شم إيده دور على غيري . . طلعها من المدرسة ولجوزها وهي قد بنته» . .

أحاول استرضاءها بأن أوان التعليم لا يفوت ، وأن أمامها وسائل تثقيف ذاتي من التلفزيون فلا تقتنع . . تقول في بكاء يتجدد «شوفي حتى أنت فضلت القراءة على صحبة أمية مثلي ، معلوم ، الأمي شو عنده يقوله ، ومواضيعه ما بتهم حدا ، والناس بتمل منه بسرعة» .

ينقذني من المجادلة ومحاولة الإقناع النداء الأخير لمسافري الدوحة .

نجلس في الطائرة متباعدتين . . وتبتسم إذا التقت نظراتنا .

أعمال توسيع مطار الدوحة غيرت ملامح أعرفها ، والمطار ورشة إنشاءات لا تتوقف . وقاعة القادمين تعج بركاب وصلوا قبلنا ، صفوف طويلة بالمئات من الآسيويين والجنسيات الأخرى ، وضباط يحاولون تنظيم الناس في ممرات متعرجة .

وقفنا معا في نهاية صف طويل . . أقبل شاب من العلاقات العامة للمهرجان مبتسما وتأمل في دهشة : لماذا أقف هنا؟ فقد أمضى بعض الوقت يبحث عني .

يصطحبني إلى كاونتر جوازات خصص للمهرجان .

أنهى الموظف أوراقي ، ألوح لرفيقة درب حين أخرج ، وألمح على وجهها خيبة أمل واضحة ، لعلها توقعت أن نستمر معا . . لو توهمت أن الخروج السريع من ميزات «الدرجة الأولى» . . . التمعت عيناها بحسرة ولمس كبيرين وهي تتابع اختفاء العلاقات العامة للمهرجان بقدوم ضيوفهم .

أحزن كلما تخيلت مشاعرها في تلك اللحظة ، ربما تصورت أنها لم تكن لتنتظر في صفوف طويلة ومع الناس العاديين» لو تعلمت أو أعطيت فرصتها . .

ألوّح لها . . . تقفز صورة أمي .

كانت مثلها تواقة إلى العلم . . وكانت راوية تلون حكاياها فتشدنا . مشغولة بعالم الكتب ، ولا تسمح لوالدي أن يقرأ رواية دون أن يحكيها لها ، ويتقاصيلها وكان قارئا نهما . ومثلها تزوجت في

الرابعة عشرة وشغلت بالأولاد .

صار مشهدا عاديا في حياتنا أن يعودا من سينما «الشرق» القريبة من بيتنا كل أسبوع ، فأسمعه وهما يصعدان الدرج يشرح لها أحداث الفيلم الإنجليزي الذي يسبق الفيلم العربي ، فسينما الستينات تعرض فيلمين بتذكرة واحدة ، ومثله الفيلم الهندي حين لا تستطيع متابعة الترجمة ، وكانت مغرمة بالأفلام الهندية ، ويبدو أنه عقد معها اتفاق جنتلمان بأن لا تتكلم أو تسأل أثناء العرض ، وسيشرح لها حين يخرجان .

ولكن والدي شجعها على الالتحاق بمدرسة ليلية للكبار ، وقضى وقتا طويلا يعلمها ، ولن أنسى وجهه وهو يشرق فرحا حين قرأت له الجريدة لأول مرة .

كانت أمي مثلها شديدة الذكاء متلهفة على العلم والمعرفة ، وظلت تعتقد أنها خسرت حياتها حين لم تكمل تعليمها . لم يكفها أن تتعلم أو تنجح رغم فرحها بنا . وتتمنى لو سمح لها بفرصة بحجم قدرتها وتوقها للعلم . . وتعتقد أن العلم وحده سبيل التميز ، فلم يكفها أن تحفظ الأشعار والأغاني وحكايات التراث ومسلسلات الراديو ثم التلفزيون ، وعذبها ونغص حياتها اعتقادها بأن من لا يقرأ لن يترك أثرا في الحياة .

تبرز صورة امرأة التقيت بها في مطار الملكة علياء الدولي كلما مررت به ، وجه جميل لم أعرف اسم صاحبته ولم تسألني من أكون ،

ولم يعنها من أمري إلا أنني أقرأ . . امرأة تؤمن أنها كانت ستغير حياتها لو تفهم الآخرون رغبتها الجارفة في محو أميتها .

امرأة تحلم أن تقرأ .

●■■

امرأة من المنطقة الحمراء

أخرج من باب محطة القطار في فرانكفورت . أطل على منتصف ساحة (هاوبتفاخة) التجارية وسط المدينة ، منطقة مشاة واسعة مرصوفة بالحجر ، تحيطها المحلات الكبيرة والمقاهي والمطاعم وتتوسطها النوافير والخضرة ومقاعد للمتنزهين ، وتتفرع عنها شوارع إلى ميادين عريقة تروي قصة وتاريخ مدينة ، وكل يجسد طرازا معماريا ، ويعكس حقبا حضارية وسياسية تعاقبت على ألمانيا ، ولشهرها دار الأوبرا والمسارح والمتاحف . كانت الحادية عشرة صباحا من يوم التاسع من نوفمبر ٢٠٠٨ .

تتميز مباني فرانكفورت العتيقة بقباب من القرميد الأحمر ، وأخرى نحاسية مؤكسدة باللون الأخضر ، وجميعها تشهد على مكانة فرانكفورت الثقافية والسياسية كما المالية . . ففي الجزء الحديث منها تتطاول ناطحات سحاب وتتلاصق . . وتستحضر رؤيتها صورة نيويورك وشارع المال فيها .

اختارها رايخ هتلر عاصمة سياسية له . . وولد فيها فخر الأدب الألماني وأمير شعرائها فولفانج فون غوته ، صاحب المسرحية الشعرية

العالمية الرائعة «فاوست» . . وهي نص مقرر على جميع طلاب ألمانيا منذ عقود . لهذا فلن تجد ألمانيا واحدا لا يحفظ مقاطع من شعر غوته الخالد أو لا يتغنى بها .

زرت فرانكفورت في مناسبتين ثقافيتين ، معرض الكتاب الشهير حين كان العرب ضيف الشرف فيه ، وهو أكبر معرض للكتاب في العالم ، ثم للمشاركة في مؤتمر رابطة القلم الدولي للدفاع عن حرية التعبير ، وهي زيارات -على أهميتها- قصيرة ، وتقتصر جولاتها السريعة التعريفية على أهم ما في المدن ، ولكنها لا تتيح للزائر الاكتشاف الذاتي لروح المدينة ، ولا معايشة تجارب شخصية فيها .

قررت اقتناص مروري بالمطار لأتسكع في أسواقها وحدي ، كنت عائدة من أمريكا ، ومدة التوقف «الترانزيت» بين شيكاغو وعمان إحدى عشرة ساعة . . والخروج من المطار أكثر فائدة من الانتظار في صالة المطار أو فندق .

قررت أن أتجول في المدينة وأسواقها وأجلس على مقاهيها وحدي وأستعيد ملامحها ، وفي اعتقادي أن معرفة المدن ولمس روحها الحقيقية يتم عبر أسواقها ، ففيها عبق المدن وتطورها . ويكشف البيع والشراء أخلاق الناس ومعدنهم ومستوى معيشتهم ، ويزيل التداول والتصرف أية غشاوة عن طباعهم وأساليبهم وأنماط حياتهم .

استقرب ضابط المطار تقدمي إلى الشيرمان وهو يسألني عن

وجهتي : «سيدتي لقد جئت في وقت مبكر جدا لأية معلومات عن رحلتك؟»

شرحت له ظروف الرحلة .

تركت الكومبيوتر وحقيبة السفر الصغيرة في الأمانات ، ونزلت بالمصعد إلى محطة القطار . . وهي تحت مبنى المطار مباشرة . . يقطع القطار خمس محطات ثم يتوقف ، فأخرج إلى منتصف الساحة الشهيرة .

ظلت فرانكفورت ترتبط في ذهني بالثقافة والتنوع والثراء حتى رأيت فيها تلك المرأة .

كنت أحاول اكتشاف مكاني وأنا أخرج من المحطة ، مشاة يتنزهون ومحلات يعكس عدد زبائنها عمق الأزمة المالية العالمية . . ومحلات صغيرة تتصاعد منها رائحة النقانق (السوسج) تتخصص بها وليز مدينة تتشابه لتصحو ، مقلية أو مشوية ، نقانق تحس معها بالغثيان بعد رحلة طويلة ، شباب وفتيات يقفون في طابور لوجبة الظهر دسمة . . نقانق وخبز وخردل وبصل مقلي وعصير طماطم . وشفاه شابة تتلمظ .

وفرانكفورت هي مدينة النقانق ، ولشهر أصنافها يحمل اسم مدينته ، تختلف وتتباين مذاقا وحجما ونوعا ، لحم بقر أو دجاج أو خنزير .

أتسكع مثلهم ببطء وبلا هدف . . لم أكن قد ابتعدت عن المحطة

حين ارتفع جدل بين رجل وامرأة . . يقفان بين المشاة على الرصيف ، ويسبقاني بخطوات قليلة ، تحتد المرأة وتحتج بنبرة أقرب إلى الصراخ ، وهو أمر غريب في ساحة لا يرفع فيها الناس أصواتهم لئلا يزعجوا السائحين عن الهدوء ومتعة التأمل والتنزه .

ما سمعته هو الروسية أو لغة إحدى دول أوروبا الشرقية .

استوقفني منظرها . . امرأة شابة جميلة بحدود . . تثير الفضول دون تحديد للمختلف فيها ، أتفحصها ، فتلتقي نظراتنا .

أدرك الرجل انتباهي واستغرابي حين التفت إليه .

يتهدل من على كتفي الشابة «كاب» شال بني اللون من صوف الكشمير الناعم ، يزينه شريط عريض من فرو الأرنب ، ويزيد ثمنه عن ألف يورو ، يعرض عادة في أجنحة الفراء في المحلات الكبرى ، بيضاء متوسطة الطول والامتلاء ، وتلم شعرها في ذيل حصان ، عصية لا ترى إلا هو . . رجلا تخاصمه نظراتها يمشي خلفها بخطوات ، وتتلفت حولها فلا ترى سواه ، وتبدو كمن يكره كل شيء ويتبرم به .

هما رجل وامرأة يختلفان على المكان والهدف في سوق تغري واجهاته بالشراء ، ويتجادلان بصوت مرتفع وبطريقة فجة في شارع مزدحم ، تصرخ نبراتها وتحتج وترفض وتضيق في خصام باد لرجل طويل القامة في الأربعينات ، وسيم بملامح ولون روسي أشقر ، يرتدي معطفا جلديا ثمينا يغطي حتى قدميه ، يشده بحزام من الجلد نفسه

عند خصره ، وإن كان تصرفهما يفتقر إلى الكياسة ويتنافر مع ثيابهما الغالية .

علا نفاشهما إذ أمر بهما . . تلتقي نظراتنا .

كان الكاب الصوفي شذوذا في المظهر العام للمرأة ، وجهها بائس رغم حلاوة بادية فيه ، وفي عينيها انكسار يحير من يراها رغم تمردها على رجلها . . تلوح بإهمال بحقيبة يد من ماركة باهظة الثمن . . تلوح بها كأنها كيس بلاستيك . . شعرها الكستنائي لم يعرف العناية . وخطواتها غير ثابتة على كعب عال وحذاء عادي لمجاهد لتتوازن عليه ، ولجر قدميها بضيق . . بتهدل الكاب الثمين وتضيع هيبة له افترضها مصممه حين ترد المرأة نصفه الطويل على كتفها ، ثم تحمل قامتها منتصبة بأناقة ما ترتدي . . «يتمرمط» لباس المرأة كأنه يقول «اخلعيني فلست منك ولا أنت مني» .

قلت لنفسي معجبة بفراستي وقدرتي على التخيل والاستنباط : «أغنياء روسيا الجدد وصلوا هنا» وهو زوج يرفض تبذير امرأة محدثة نعمة في ظل أزمة مالية عالمية طاحنة . ولا بد أنهما ممن حققوا ثروة بالتهريب أو المافيا بعد انهيار الاتحاد السوفييتي . . وقد ظهرت طبقة «النوفوريش» أو الأغنياء الجدد بالفرنسية - الذين يثرون بعد الحروب أو التحولات السياسية - في جميع دول الاتحاد السوفييتي المتفرطة . . وقد برزت طبقة كبيرة من هؤلاء بعد انتهاء الحقبة الاشتراكية ، وزوال سيطرة الحزب الشيوعي السوفييتي نتيجة لبرنامج البروسترويكا (إعادة

البناء) الذي انتهجه ميخائيل غورباتشوف في فترة رئاسته التي امتدت أكثر من ثلاث سنوات (١٩٨٨ -١٩٩١) ، فانهار الحزب والاتحاد السوفيتي بدلا من إعادة البناء ، وأنهى غورباتشوف الحرب الباردة بين القوتين العظميين ، روسيا وأمريكا ، لتسود العالم القوة الأمريكية الأحادية . وأفرز هذا الانهيار المدوي وانتهاج سياسة اقتصاد السوق والانفتاح الاقتصادي طبقة «الأغنياء الجدد» . . ومعظمهم دون أصول اجتماعية أو ثقافية ، ومن قرى نائية فقيرة أو من طبقة الفهلوية ، وتبدو النعمة الجديدة هجينة في لباسهم وتصرفاتهم ونمط حياتهم . . تثير الشفقة ولا تخطئها عين . لا يعرفون آداب الحوار أو تهذيب التعامل أو إتيكيت الطعام ، ويرفعون أصواتهم في المحلات والمقاهي والمطاعم والشوارع . وهم يمتلكون كل شيء إلا رغبة التحضر النفسي .

تجاوزتهما وأنا أختال بذكائي وقدرتي على التحليل والاستنباط الذي لا يكل ، حتى بعد رحلة ليلية طويلة .

أدخل متجر «غالاريا» الضخم .

تتمدد فرانكفورت على ضفتي نهر الماين . . مطارها أحد أكبر مطارات العالم ، مدينة تتوسط ألمانيا . . وثلث سكان بلاد «الجيرمان» لا يتحدثون لغتها أو حتى يعرفونها .

يرتبط اسم فرانكفورت بالمعارض الدولية ، الثقافية كما العلمية والصناعية . . معرض الكتاب ، ولمنح ضمن فعالياته جائزة غوته

للإبداع الأدبي ، وجائزة السلام . ومثله معارض سنوية لصناعة السيارات ، والأنسجة ، وتقنيات الطيران ، والفضاء .

البرد الألماني قارس في نوفمبر «تشرين الأول» ، ولكن شمس ذلك اليوم شجعت كثيرين على الخروج . . وبدأت تظهر في بعض واجهات وقاعات المحلات زينة ولشجار أعياد الميلاد ، وإن ألقى التقشف بظلاله على أنواعها ، وعكس عمق الأزمة المالية العالمية في انهيار البورصة وجنوح لسعار البترول ، فقد تجاوز سعر البرميل في هذا الوقت مئة وعشرين دولارا .

شعرت بخيبة الأمل ، فما رأيته من زينة عادي لا يتناسب وشهرة المدينة عما تتجمل به وتنتجه من زينة الميلاد ، وعن أنها تنصب وتزين أكبر شجرة ميلاد ألمانية في ساحتها .

الجوع بلا هدف . . أتنقل بين طوابق المتجر . أتفقد ملابس لا أعتزم شراءها ، وأتعجب لأسعار تعكس الغلاء العالمي .

أقلب وأدقق .

تحدثني امرأة في انشغالي فلا أفهم ، ولكن همسها قريب جدا . . رفعت بصري .

جفلت بالصدمة والخوف وخذلان ذكائي . . كانت تقف على يميني وتكاد تلتصق بي .

هي ذاتها صاحبة الرداء الصوفي وفراء الثعلب ، تقف بجانبي وهن يميني ، تمد لي ورقة حمراء ملفوفة بالسيلوفان . . أتلفت حولي

باستغراب ودهشة وبلا تصديق لما أفهم . . كان زوجها من على يساري بخطوتين . . ويراقبنا .

وما زلت ماخوذة أتفحصها فلا أصدق لو أستوعب ، تحت يدها الأخرى تختفي تحت الكاب الشعر عددا من الورود الحمر ، وقد لفت كل واحدة منها بسيلوفان ، بينما مد لي الأخرى بودة وبنظرة كسيرة . . وتهمس بما فهمت أن أساعدها .

أتلفت حولي لعلني أقتنع ، مصدومة بما لا يصدق ، ذاهلة لعل أحدهم يشرح لي .

كان الرجل ذو المعطف الجلدي يراقبنا بنفاد صبر ، فتح صدر معطفه حتى الخصر فبدا كرجل قادر ومحترم ، يلف حول رقبته شالا حريريا بألوان زاهية تبينت منها في «الخمتي» الأصفر والأبيض . . كان منحنيا بشكل لافت ويبعث على الريبة والتوجس . وعيناه تسمرتا على حقيبة يدي الكبيرة (موضة ذلك العام) ثقيلة وتتدلى من كتفي منتفخة . . حشوتها بكل ما أحمله وأملكه في رحلتي : جواز السفر والموبايل وتذكرة العودة وبطاقات الائتمان والكاميرا ونقودي وبطاقة الرجوع إلى المطار بالقطار ، ووصل الأمانات لاسترداد حقيبتي والكومبيوتر ، وبعض مصاغ استعملته في الرحلة .

برد فعل للخوف تمسكت بالحقيبة .

متسولان إذن؟!

وما يرتديانه من ثياب لمسنة هو «عدة الشغل»؟ والتحايل

والنصب لدخول المحلات الكبرى دون اعتراض أو إثارة شبهات رجال الأمن فيها!.

أخرجت من جيبي قطع يورو معدنية لا تتجاوز ثلاثة وأعطيتها لها . . وقد خشيت أن أفتح حقيبتي وهما يحيطان بي ، والرجل يستحثها أمرا بعصبية واستعجال فترد بغضب وتفرد كفها بما أعطيته لها ، أنقل بصري بينهما وما زلت مأخوذة . .

ترضخ أخيرا ، تتوسل بحركات من يدها وإصرار متلهف أن أشتم الوردة . . وتلح بإشارتها ولغة لم أفهم أن أجرب رائحتها «العطرة» .

أتوجل من إصرارها ونفاد صبر رجلها ومشايعته لنا . وتداهم ذاكرتي تلك القصة الرهيبة عن شم الورود ، جريمة هزت المجتمع المصري نهاية التسعينات ، حين استخدم مروجو المخدرات في الإسكندرية جمال الورد ورائحته لتعويد أطفال من المدارس على الخدر ، فتسهل سيطرتهم عليهم حين يدمنون ، ثم يستغلونهم في الترويج والبيع ، فهم أطفال مدارس راقية وبلا سوابق ، ولن يفطن إليهم رجال مكافحة المخدرات لو يشكوا بهم . . رشوا الورد بالهيروين ، وقدموه للصغار مجانا فأدمنوا ، ثم بدأ الصغار يشترون الورود بمصروفهم اليومي ، وبما يسرقونه من بيوتهم وعائلاتهم .

كشف جريمتهم أحد الآباء . . طبيب ، لاحظ نبول ابن لم يتجاوز الثامنة وسيلان أنفه وأقلقه ما يشبه مظاهر إدمان . . تبع باص المدرسة صباحا ، قفز الصغير بلهفة إلى بائع الورد وأعطاه ما سرقه من مصاغ

لمه وأخذ وردة ودفن أنفه فيها . . فحصها الوالد في المختبر فتكشفت خيوط الجريمة النكراء .

تلمع الشابة بحركة من يدها وتحاول إقناعي بشم الوردة . . أنقل بصري بينهما وأرفض ، فقد تحمل ما يفقدني توازني لو أغيب معه عن وعيي فيسهل على الرجل انتزاع حقيبتي بينما يبدو كأنه يسعفني .

يتجادلان بما لا أفهم . . مشوتران وفي عجلة ، وله سطوة على الشابة رغم اعتراضها ومناكفتها له .

تنتقل المرأة إلى مشترية خلفي ، مدت لها وردة وترجوها أن تساعدها ، ألصقت السيدة على حقيبة يدها بحركة غريزية ودستها تحت إبطها ، ثم نهرتها بتوجس وحزم غاضب .

تبادلت مع السيدة الاستهجان وعدم تصديق ما يحدث في واحد من أكبر وأشهر المتاجر الألمانية ، أنا بالإنجليزية التي بدا أنها لا تعرفها ، وهي بألمانية لا أفهمها ، ولكن إشارات اليد وتعابير الوجه والصوت لوحت باستنكارنا وخوفنا منهما .

استدرت . . ذاب الاثنان في اتساع المكان فجأة كما ظهرا .

ألقيت بالوردة في سلة المهملات .

أقرأ في صالة الانتظار في المطار نسخة بالإنجليزية من جريدة ألمانية ، تحقيقا مثيرا عن ازدهار تجارة الجنس في ألمانيا في ظل الأزمة المالية العالمية ، عن قوادين يستغلون سذاجة شابات ، يزينون لهن عالما

رحبا من وظائف ومال وحياة أفضل ، وعن مدن كبيرة وبعيدة تفتح ذراعيها تستقبل وترحب باغترابهن ، وأحلام بملابس وبيوت لا تشبه بساطة ورتابة القرى في دول أوروبا الشرقية . . وينسج بعضهم من وهم المشاعر قيدا للفريسات ، من حب وارتحال إلى الأفضل ، فتسلم الفتيات قيادهن لبائعي الأوهام ، يستولون على جوازات السفر ، ويجبرون الفتاة على تحصيل النقود بالسرقة أو بيع جسدها وربما كليهما ، ويستولي القواد على كل ما تكسب ، وهي لا تستطيع اللجوء للبوليس ، فلا وثيقة معها ، وستعتبر متسللة ومقيمة غير شرعية ، ولا تملك نقودا ، وقد تسجن قبل أن ترحل إلى بلدها ، وستعود خاسرة لكل شيء . . فتستسلم الغريبة الوحيدة لمأساتها مرغمة .

تلك الشابة واحدة منهن إذنا يستغلها قواد مجرم في السرقة صباحا ، ولا أحد يعرف ما يفعلها فيه مساء ، لهذا يسير ويقف على مسافة منها لا تعلمها ، يتنكر لها إن قبضوا عليها ، ويبقيها تحت بصره ورقابته فلا تهرب .

أرتجف .

تترى السيناريوهات المرعبة . . ماذا لو سرقا حقيبتي بكل ما فيها؟ جواز سفري وتذكرة العودة والنقود والتلفون وتذكرة الرجوع بالقطار ووصل أمانات المطار ، وفي بلد لا أعرف فيه أحدا ولا أملك قرشا . .

أرتجف . . وأحمد الله أنه جنبني هذا السيناريو القاتم .

أنهي قراءة التحقيق عن تجارة الجنس في ألمانيا والعالم ، عن

امتهان للنساء تعافه النفس ، وقصص مأساوية تقشعر لها الأبدان ، ويعطي أرقاما مذهلة عن ازدهارها وظهورها في مدن ألمانيا . . تهاجمني صور محزنة للبشر والجنس في المناطق الحمر في بعض عواصم العالم ، باريس ولندن وأوسلو وكوبنهاجن حيث اللحم الرخيص يتسابق على الثمن والزبون .

سميت مناطق الجنس بالمنطقة الحمراء ، أو الضوء الأحمر ، لأن العاهرة كانت تشعل ضوءا أحمر في غرفتها ليستدل الرجال على مكانها .

لا شيء يمتهن كرامة المرأة وإنسانيتها كالمتاجرة بجسدها ، واعتباره سلعة تبيعه لمن يرغب ، ولن أنسى ما رأيته في أوسلو ، ثلاث مومسات يشابقن إلى سيارة رجل توقفت في شارع المنطقة الحمراء ، كل تحدثه من نافذتها ، يساومه حتى ظفرت به واحدة فقفزت إلى جانبه سعيدة ، وخفتت وتفرقت الأخريات في انتظار صيد آخر يقذفه الطريق .

كنا عددا من الكاتبات العربيات ومرافقتنا الكاتبة النرويجية ، صحبتنا إلى متنزه شهير يحاذي الشارع الرئيس حيث تبدأ المنطقة الحمراء ، وطلبت أن نظل جماعة إذ نقطع المكان ، فمن تسير وحدها قد تتعرض لخطر معاملتها كبنت ليل ، أو ربما يسطو مدمن على حقيبتها . أما متحف الجنس في ذلك الشارع فقد دلتنا عليه بافطة نحاسية كبيرة علقت بجانب باب صغير ، صعدنا عدة درجات فتبدى

اتساع المكان . . تفحصتنا بائعة التذاكر باستغراب ، عدة نساء نسأل عما يعرضون وثمن التذاكر ، وربما ظنت بنا الظنون . . كانت الأفيشات على المدخل والأدراج تبين أنهم يعرضون أفلام بورنو من العيار الثقيل ، كما يتفرع عن المتحف مسرح للجنس . وانسحبنا خوف أن تعرض علينا ما يناسب «مثليات» يبحثن عما يثيرهن ، وإلا لماذا لحضر مجموعة من النساء إلى مكان كهذا؟ نضحك كثيرا للخاطر الملعون ، وتغادر بينما تقلب بائعة التذاكر يديها في دهشة واستغراب .

وبقي ما رأيته في المنطقة الحمراء «دي والين» في أمستردام أشد مناظر تجارة الجنس قتامة وامتهانا ، تعرض الفتيات بضاعتهن الجسدية عاريات أو بورقة التوت في واجهات زجاجية صغيرة ، فيفاوض الزبون من يختار مباشرة وأمام المارة فتختفي معه في الداخل ، أو عبر الفواد الخاص بها أو مكتب لاستعلامات يعرض أرقام ومواصفات المومس والسعر والمدة والممنوع والممنوع . كابينات صغيرة يعرض فيها اللحم الرخيص في ثياب داخلية باهظة الثمن ، ولكنها عدة الشغل ، كذلك الكاب والحقيبة على جسد المرأة في فرانكفورت ، مجرد «يونيفورم» لباس عمل يسحب منها بانتهاء شغلها .

تتمدد منطقة «دي والين» الحمراء في العاصمة الهولندية أمستردام على عدة قنوات مائية ، وتنتشر شوارع الجنس ومتاحفه ومسارحه حول ممرات الماء على بعد خطوات من الكنيسة القديمة ، أولته كبركه «Abe Kirche» ، ومثلها مقاه تبيع الحشيش والماريجوانا

المرخصة للاستعمال الشخصي تحت سمع الشرطة وبصرها ، وتختص بعض المحال بصناعة حلويات بأنواع المخدرات ونكهاتها . . لكن أعجب ما رأيته في زيارتي الوحيدة لمنطقة دي والين كان حين سمعنا ضحكا صاخبا ورأينا جمعا غفيرا يتحلقون أمام إحدى فاترينات الجنس ، كانت موسا شقراء دقيقة الجسد في غرفتها الزجاجية عارية تماما ، ترفع إحدى ساقيها على كرسي بجانبها وتعرض أعضاءها الجنسية بشكل فج ، ثم تمارس الجنس الذاتي لتحرض المتفرجين على تجربته معها .

بنيت مدينة الفنون والجسور القديمة المنخفضة أمستردام على نهر أمستل ، وبه سميت البيرة الشهيرة في العالم . وقد أثارت منطقة دي والين كثيرا من اللغط حول ماسي تجارة الجنس ، فهي بؤرة لاستغلال الفتيات من أنحاء العالم للعمل كعاهرات . . تُستدرج إحدى الفتيات ، ومعظمهن قرويات جميلات ، بعقد عمل مجز في أية دولة أوروبية ، كجليسة أطفال أو طبيبة أو نادلة أو محاسبة . وكثير من المخدوعات فلاحات أنهين الدراسة الجامعية أو الكلية ، ثم حملهن طموح ساذج بسيط إلى مدن الوهم والخداع . وحين وصلن هولندا أجبرن على العمل كعاهرات . وقد ثارت قضية عامة شغلت هولندا إعلاميا وتشريعيا حين اتهم البوليس شابا من المغرب وتركيا بالعمل لصالح بيوت الدعارة ، يصطادون الفتيات من شرق أوروبا بتمثيل أدوار العشق والهيام عليهن ، ثم إحضارهن وبيعهن لهذه

الدور . . كما بينت تقارير البوليس الهولندي أن معظم فتيات الليل من أمريكا اللاتينية وإفريقيا كن ضحايا شباب من بلادهن ، باعوا لهن وهما بالحب والسفر والزواج والحياة الجميلة فانتهين في علب زجاجية للجنس .

وكثيرة هي المناطق الحمر في عواصم العالم ، وهي العار بالبشر مقنن من الحكومات ، ولكن الأخطر هو ما يحدث للنساء في مناطق الفقر حين يبعث فتيات لا يتجاوزن الثامنة لرجال يتعطشون للجنس مع الصغيرات شغوفا أو خوفا من الإيدز ، ثم تنتهي الصغيرات في مواخير بيع الجسد . وكان الألمان ثم اليابانيون أكثر من اشتروا طفلات تايلاند حتى اكتشفت الفضيحة وضبطتها الحكومة التايلاندية .

تداعت الصور وما زلت في صالة المطار ، وتمنيت لو أنني لم أشاهد تلك المرأة في فرانكفورت ، امرأة جاءها فارس تمشوق القامة أنيق الشعر ، وفي لباسه مظاهر نعمة وغنى ، يختارها من بين نساء فريتها ويغدق عليها مزامير الحب والهيام الكاذب والهدايا الثمينة ، ويصور لها حياة رغدة يفتحها أمامها بعشقه ، فتسلم له قيادها ، وتهجر أهلها وحياتها ، وتطير مع فارسها إلى بلد الأحلام وعمله ، فإذا هو قواد يتاجر بلحمها ويعتاش منه .

وأنا رأيت ذلك في نظرات تلك الشابة في ساحة فرانكفورت ، وسمعته في نبرات صوتها إذ تجادله ولا ترى غيره ، كره وضيق وخيبة أمل إذ يدفعها إلى ما تكره من نفسها ومنه ، ترفض ثم تنصاع ، فقد

امتلكها بالغدر والخداع ، امرأة تُسْتَغل مقهورة مسلوبة ولا تملك سوى احتجاج لا ينفع .

يطغى القبح على الجمال في كل شيء ، وتختزن الذاكرة مواقف الحزن أكثر من لحظات الفرح ، ليت لو أن فرانكفورت بقيت لي مدينة الفن والشاعر غوته والمعارض الدولية ، ولم تفصح لي ذات صباح ، وبلا تخطيط ، عن ذلك الوجه القبيح .

●●●

قتيلة الشرف ... لا اسمٌ ولا عنوان

لا أعرف اسمها ، ولكن منظرها أرهق ذاكرتي واحتلها لبالي طويلة . كانت المرة الأولى التي رأيت فيها قتيلا حقيقيا يلفظ الروح ، كان ذلك قبل عصر الفضاء ، وقبل أن يصير القتل نقلا حيا على الشاشات ، جثثا ولوصالا وشهداء وقتلى ، فضاعت هيبة الحياة والموت بالاعتياد . .

كنت أحبو في مدارج العلم والصحافة ، طالبة منتسبة في جامعة بيروت العربية ومحررة في جريدة تحاول إثبات قدمها ، وقد دخلت الصحافة بعد مقال حرك مياها راكدة عن «قتل الشرف» وتعليبا على حادثة قرأت عنها في صحيفة الحياة اللبنانية .

كان ذلك في مدينة بيت لحم ربيع عام النكسة ١٩٦٧ . أستقل سيارة أجرة وأتوجه إلى عمان لإعداد ريبورتاجات صحفية .

تجاوزت الساعة السابعة صباحا بدقائق ، ونحن أربعة ، أنا وراكبة في المقعد الخلفي ، أنا عن يمين وهي عن شمال ، وزوجها إلى جانب سائق هو شقيق زميلة لي في الإعدادية من مدينة الخليل ، ولكنهم سكنوا بيت لحم وولدوا فيها .

وساحة المهد واسعة قبل أن تعج بالناس فتضيق بهم ، ظلت موقفا لتاكسيات الأجرة إلى القدس وعمان ، على يمينها مكتب البريد ومخفر بيت لحم ، تظللهما شجرة صنوبر عالية عتيقة ، لا تخلع زينة الميلاد عنها حتى تنتهي أعياد جميع الطوائف المسيحية ، الغربية والشرقية والسريان . وتقابل المخفر عمارة صغيرة تحتل طرفها مكتبة ضيقة صغيرة ، أسهمت كتبها في تشكيل معرفتي ، فوالدي أحد زبائنها الدائمين ، شراء واستئجارا ، ولكتبها يعود فضل قدرتي على القراءة السريعة والمحافظة على الكتاب ، فمدة الأجرة محددة ، وأي تمزيق أو خربشة سيغرم أبي ثمنه ثمن الكتاب ، وقد يمنعني من قراءتها ويحرمني من هوايتي المفضلة .

بجانب المكتبة عدد محدود من محال التوفوتيه ، وخلف البناية تماما مسجد عمر ، ولكن لزدحام البشر وسيارات الأجرة في ساحة المهد ظل يضيع هيبة المكان وتفاصيله وقدسيته . وقد تغيرت كل تلك المعالم في احتفالات بيت لحم بالألفية الثانية ٢٠٠٠ وبَدْءِ التاريخ من مغارة صغيرة فيها .

كنيسة المهد ، أقدم كنائس العالم ، بناها الملك قسطنطين عام ٣٣٠ للميلاد . ويقابلها مسجد عمر ، ويعود بناؤه إلى عام ٨٦٠م ، حين زار عمر بن الخطاب مدينة بيت لحم في طريقه إلى بيت المقدس مبعوثا من النبي ليتسلم مفتاحها ، وحين صلى اختار مكانا بعيدا عن كنيسة المهد ، تماما كما صلى في القدس مبتعدا عن كنيسة القيامة

خوفا من اختلاف المليين على مكان صلى فيه الفاروق . . وتقدير المسافات مختلف في ذلك الزمان ، ويقاس بخطوات الماشي ، وربما ظن الخليفة العادل أنه ابتعد كثيرا بقياس الزمان وخلو الأمكنة ، ولكن كنيسة القيامة ومسجد عمر في القدس ، ومثلهما كنيسة المهد وجامع عمر في بيت لحم على بعد مسافة سير قريبة جدا .

تعني بيت لحم بالآرامية ، وهي اللغة التي تحدث بها المسيح ، بيت الخبز ، بناها الكنعانيون قبل مائتي عام من ولادة عيسى بن مريم ، وسموها بيت لحم لأن حولها وفي حقولها يُزرَع القمح ويحفظ في الأهوار والمخازن . ومن أسمائها «بيت أفراته» أو بيت الهة الخصب ، و«بيت إيلو لاهاما» أي «بيت الآلهة لاهاما» فتحرفت مع الأيام وانتهت بيت لحم .

و«بيت» اسم شائع في الآرامية ويكثر في فلسطين . . وتتوسط بيت لحم بلدنا بيت ساحور وبيت جالا .

بيت ساحور أو «بيت ساهره» أو حقل الرعاة ، مكان الساهرين لحراسة أغنامهم ، فيها تمت البشارة الأولى لميلاد المسيح ، ظهر مذنب ساطع في السماء يتوجه نحو بيت لحم ويتوقف فوق نقطة فيها ، فتأكد الرعاة أن حدثا غير عادي جرى ، تبعوا المذنب واستدلوا بالنجم على طفل في مذود ومغارة ، فعرفوا أنه سيكون ذا شأن كبير في العالم ، وقدموا له هداياهم من أغنامهم . . وقد وصل معهم ثلاثة ملوك من المجوس تتبعوا المذنب منذ بدأ سيره من الشرق مثلهم ، كانوا

يبحثون عن ملك مخلص للبشر ، ويحملون له هداياهم ، وحين توقف النجم فوق مغارة الميلاد سجد ملوك الشرق لطفل في مذود البقر وقدموا له ذهبا ولبانا ومرا . .

أما بيت جالا ، فهي مصيف رائع والبلدة الأكثر ارتفاعا في المدن الثلاث ، وبيت لحم أكثر علواً من القدس أصلا ، وأقيم فيها على قمة «أفرست» - وهو الأعلى في المنطقة - منتزه كبير ظل يستقطب الكتاب والصحفيين كما المتنزهين . . وقد اتصلت مباني المدن الثلاث بعد الاحتلال فضاعت حدودها جميعا ، واختفت إلا من لوحات كبيرة تعلن بداية كل منها .

تلتف السيارة مع طريق ضيق إلى عين غزال ، تقطع حارة المفواخرة ثم شارع حديث يخترق وادي مطلي ، كانت جميع متاجر السنتواري أو «المشغولات الصدفية» التي تشتهر بها بيت لحم مغلقة ، وحركة الناس في الصباح قليلة ، وبدا أن السائق يتجه إلى حيث راكب آخر .

يمر الطريق بحافة الجبل وعند سفحه ، يعلو عن يمين ، وينحدر بشدة عن يسار . . وتتفرق البيوت عند السفح ، ثم تتقارب وتلتحم وتتقادم صعودا إلى قمته لتعانق مدينة كرست التاريخ وبدأته .

انحرف السائق يمينا مع بداية طريق ترابي يصل بيوتا حديثة ويصعد الجبل . . ارتجت السيارة وصرّتْ عجلاتها ، وشهقنا بخوف المفاجأة- أنا والمرأة بجانبي- حين ارتطمنا بالمقعد الأمامي لحظة اهتزت السيارة وتوقفت في التراب بعنف .

صرخ الراكب منعوذا ومتحسبا من صباح يبدأ هكذا . وارتبك السائق ، حدق أمامه لحظات ، ثم أعاد تشغيل المحرك ورجع إلى الوراء ، ثم إلى الإسفلت خلفه ويستعد للانطلاق .

رأيت ما أربكهما من النافذة اليمين .

قتيلة . .

على الأرض وفي عرض الطريق امرأة في منتصف الثلاثينات ترتدي تايرا أزرق بلون السماء ، وقعت على جانبها الأيسر وتتضرج بدماء نزفتها ، ذراعها اليسرى ممدودة على الأرض ، واليمنى تقبض على قلبها ، تتناوب عليها خلجات الاحتضار فيهتز جسدها مع كل نوبة . وحدها في الطريق بين بيتين صغيرين متقابلين كأنما خرجت لتوها من أحدهما ، والأبواب والنوافذ موصدة ، وسكون رهيب يخيم على المكان كأنما خلا ممن فيه ، لا صوت ولا وجه في بيوت الحجر حولها يَسْمَع أو يدري . تبينت خيطا من الدم ما زال يتدفق من الصدر ، وآخر من البطن فيلون الملابس ويغور في التراب . . حقيبة يدها سوداء ملقاة بجانبها ، وغطت شعرها بإشارب أبيض ربطه عند رقبتها ، وانحسرت لثورتها عن فخذ شديد البياض يكشف مشد جواربها الشفافة . . وتنتعل حذاء أسود .

تمعن السائق وجهها برهة كأنما ليتأكد . . وبلا تردد تخلى عن طريق تسده بجسدها ، وعن راكب جاء من أجله . . صرت عجلاته بالسرعة والتراب وانطلق لا يلوي على شيء .

لم ينطق الراكب أو زوجته بكلمة واحدة رغم هول ما رأينا .

أسرع بالسائق أن يتوقف ، فالمرأة ما زالت حية ، ونستطيع إسعافها وحملها إلى المستشفى القريب ، فظل مسرعا كأنه لم يسمعني ، ومثله فعلت العائلة . . لشاحت المرأة بوجهها عن رجائي فولوت بوزها إلى الناحية الأخرى تراقب الطريق . . وأنا ألح وأتوسل للسائق أن يتوقف ، فحرام ما نفعله فهي حية ويمكن إسعافها . . لم يجب ، فقط ، رمقني من المرآة أمامه بنظرة احتقار أخرستني وإن لم أفهم سببها ، ثم انطلق لا يلوي على شيء .

خيم الصمت الثقيل . صمت تأمر على موت رابنه ، فأسكتنا جلاله وهرونا منه .

يمر الطريق إلى عمان بالطرف الشرقي للقدس ، يبدأ من منطقة القبة شمال بيت لحم ، عن يمينه قبة راحيل ، وتتلاصق بيوت مخيم «عائدة» للاجئين وتمتد عن شماله . . سميت القبة لأن فيها قبر راحيل ، وهي أم النبي يوسف وزوجة النبي يعقوب ، ويقال إنه جاء بصحبتها إلى الخليل ، فمرضت على الطريق وماتت ، فدفنها ، وبنى على قبرها قبة صغيرة .

كنا نعجب لإصرار السياح على زيارة قبر قديم صغير ومهجور ، ويبدو أن أكثرهم من اليهود الأوروبيين أو الأمريكيين ، فاليهود يتبركون براحيل ويعتقدون بكراماتها ، وزيارة أضرحة الأولياء تقليد متبع عندهم ، وقد اعتنت إسرائيل بالقبر بعد احتلال الضفة الغربية وصار

أحد المعالم السياحية التي تروجها .

كان طريق بيت لحم - القدس وحتى احتلال الضفة الغربية عام ٦٧ طويلا وضيقا ومتعرجا ، ويستغرق نصف ساعة أو أكثر ، يتشعب أمام دير مار الياس على ضواحي بيت لحم إلى يمين وشمال ، والدير كنيسة قديمة بنيت على تلة تحيطها أشجار الزيتون . . تجعدت سيقانها المتوية وتضخمت بذكريات التاريخ ، وصخب المعارك حولها وقصص الراحلين والقادمين ، وتحفظ تجاويف أخشابها في تحد للمطر والشمس بعضا من نذور وآمال ، دسها أصحابها في الجذع العتيق يوما على رجاء ، ولا يعرف أحد هل تحقق أم تعلقت آثاره بسيقان عتيقة من طور سنين . . وحفر آخرون أسماء وقلوب عشاق تواعدوا على حب «إلى الأبد» دون أن يعرف أحد مصير جذوة عاطفة توهجت واشتعلت بشبابها ذات يوم .

يحج الناس مرة كل عام إلى دير مار الياس في احتفال سنوي يعيد الحياة إلى موات المكان ، مراجيح وصلوات وفرح ، لم يغلق الدير أبوابه على صمت عميق راسخ بقية العام ، لا يزعج هدوءه شيء حتى حركة السيارات من القدس إلى بيت لحم والخليل وقراهما .

ينحدر الطريق عن شمال الدير إلى بلدة بيت صفافا ويتوقف هناك ، وكان قبل نكبة ٤٨ يصل القدس ، ويتوقف الشارع عند شريط حدودي قسّم البلدة شطرين ، نصف أردني ، والآخر إسرائيلي تحرسه قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام . وظل رمزا لمعاناة بلدات فلسطينية

كثيرة فصل الاحتلال عائلاتها بشريط شائك ، تمر به أعراس وجنازات الأقارب فيشارك فيها الأهل من الطرفين بفصلهم سياج شائك وبوابة صغيرة فيه .

وقد أزالت إسرائيل الشريط بعد احتلالها للضفة الغربية ، وأعادت فتح الطريق بين القدس وبيت لحم بمحاذاة بيت صفافا ، وطوله عشرة كيلومترات ويستغرق قطعه خمس دقائق .

كانت خطورة الانزلاق على الطريق القديم إلى القدس في أيام الشتاء والصقيع كبيرة ، فهو يتعرج على حواف أودية سحيقة ، يهبط ويصعد إلى قرى صوريا هر والسواحرة الغربية وجبل المكبر ، ثم يهبط إلى وادي النار ، ويعود ويتسلق الجبل إلى رأس العامود في شرق القدس ، ومنها ينحرف يمينا قشرقا إلى عمان . . مر بالعيزرية فالخان الأحمر ثم أريحا والسلط قبل العاصمة عمان .

كانت الجبال ما زالت تزهو بالربيع في بداية أيار «مايو» . . بساط أخضر وبقايا ألوان صفر أو حمر متناثرة ، وأشجار أوراقها يانعة رويت واغتسلت بشتاء طويل .

نصل عمان دون أن ينبس أحدنا بكلمة . . واغترقنا في صمت كأنما كل يهرب من الآخر ومما شاهدناه .

ولكنني ومنذ رأيتها تنتفض باختلاجات الموت وتنزف ، لم أعد أحتمل رؤية الدم ، أو مريض في النزع . ولم أقترب من ميت حتى توفي والدي .

كانت أمي تشرب القهوة وأبي يستعد للخروج حين سمعتها تحدثه بإكبار، عن شقيق صبي في الرابعة عشرة غسل عاره في بيت لحم، فوالله إنه زلمة، معلوم، مهو مش معقول يعيشوا موطنين راسهم بالأرض كل حياتهم، طبعا النار ولا العاره.

ولمي تلح على ذاكرة أبي بتفاصيل تدله على أصل وفصل القتيلة.

ولد أبي في بيت لحم، وعاش فيها طفلا ثم يافعا. فأمه تلحمية، وأبوه أحد تجارها، وحين لاحق الأتراك جدي قبل الثورة العربية الكبرى جمع ماله كله وأعطاه لجدتي وأختبأ في دير للرهبان أكثر من عشر سنين.. سكنت جدتي مع أهلها وادعت أمام عسكر الأتراك أنها انفصلت عن جدي ولا تعرف له سبيلا.

استدان أشقاؤها وأبناؤهم مالها ليهاجروا إلى أمريكا ثم «يسحبونها وأبي» ولكن أحدا منهم لم يعد أو يفكر بالسداد أو يرسل في طلبها.

تلح أمي، تستنهض ذاكرة رجل مشغلة بأمور حياة غير تسب امرأة قُتلت:

- ألا تذكر الدهان؟ قريب جارتنا أم سامي.. من أجرى صيانة البيت قبل أربع سنوات؟..

يشحذ فكره.. ينفد صبرها.

يتذكر.. اسم العائلة المسيحية التي ينتمي إليها الرجل فزوجته

ابنة عمه ، تركت طفليها وهربت ، ثم ضاع أثرها في باص يتوجه إلى القدس . . واختفت .

مر شهر طويل وأهلها يسألون ويبحثون ولا أثر . . ثم اتصل بهم أحد رجالات عمان ، ليؤكد أن ابنتهم في بيته «طيبة لو دخيلة» .

أعيدت الهاربة إلى أبيها . . وباشر زوجها إجراءات طلاق سريع بسبب «الزنا» .

وبدأوا يحضرون شقيقها الطفل ليغسل عارهم .

انتظروا ثلاث سنوات ليكبر صبي شقيق ، حضّروه لمهمة لا يستطيعها غيره ، فأخوها الأكبر رب عائلة ومثله والدها ، وكلاهما تعهد للحكومة خطيا بعدم المساس بها ، ولو فعل فستعتبر جناية قتل مع سبق الإصرار لا جريمة شرف يُخفّف الحكم فيها ، وستشرد عائلاتهم بعد فضيحة هزت بيت لحم .

غاب عن القانون أن طفلا سيكبر وهم يلقنونه أن شرفه تمرغ في التراب ، ينام ويصحو على أصوات تحرضه ضد من لوّثت شرفهم ، وتستجديه قتلها وتخليصهم من عارها ، وأنه أملهم الوحيد في إسكات ألسنة الناس ، فدمها المسفوح سيمنع نظراتهم وحمايرتهم ، وهو وحده قادر على استرداد شرف سلبته امرأة لم تعد منهم وإن حُسِبَت عليهم ، وما فعلته يستحق القتل ، وقد حكمت على نفسها به ، ويعدون الأيام ليكبر ويستعيد شرفا تلطخ ويرفع رؤوس رجال طاطأت بذل العار . . .

اقتنع الصغير بأن سفك دم شقيقته سيكون كفارة لراحة وخلاص أهله ونفسه ، وأنه سيرتفع على جثتها في عيون الآخرين . وسيحميه القانون ويتعاطف معه ، ولأنه حدث سيتال حكما مخففا في جريمة شرف . وسيخرج من سجنه بطلا ورجلا حرا لم يقبل العار .

فهل رأت تلك القتيلة تنامي الكره والحقد في عينين صغيرتين تفتحان وتغمضان وتكبران على رغبة التخلص منها؟ هل لمست تصميمه على قتلها في نبرات صوته؟ وهل أحست نفوره وازدراءه في عينين صغيرتين وبدين أطلقتا الرصاص دون أن يرف له جفن؟ هل طاف هذا بخاطرها وهي تنزف فوق التراب روحها ودمها؟ أو حين ركلها وخطا فوق جسدها راكضا إلى مخفر الشرطة؟ لم ترلها عرفت منذ أمد ولكنها استسلمت لموت يريحها؟

أخبرت والدي بأنني رأيتها تموت . . وأنها كانت ما تزال تختلج بينما التراب يمتص دمها ، وأن الساتق رفض إسعافها وهرب من المكان مسرعا .

يقول والدي إن الساتق معذور وفعل صوابا ، فإسعافها سيخلق له مشكلة مع البوليس وهو في غنى عن الحقيق يعطله ، ثم استدعائه شاهدا في المحكمة «والمحكومة حبالها طويلة» ، ومشكلة أخرى مع أهل القتيلة فلن يسامحه رجال عائلة من حقهم الخلاص من ابنة المردت ومرغت شرفهم ، وأضاف في دهشتي : «فواحدة مثلها لا تستحق المساعدة» .

أما أمي فكانت أكثر حماسة وهي تعذر القاتل الصغير ، فالقتيلة بفعلتها دمرت مستقبل شقيقها القاتل ، ترك الدراسة حين لم يحتمل ما يقوله رفاقه الصغار عنها ، ويلوكون سيرتها أمامه ، فلم يعد يجرؤ على الخروج أو اللعب مع أترابه لئلا يعيروه بها ، ولم يغادر والدها بيته منذ الحادثة ، وأخوها الكبير يخرج متخفيا وللضرورة القصوى ، فالنظرات والتلميحات فوق احتماله . . أما زوجها فاعتكف في المنزل لا يفتح بابه أو يخرج إلا مضطرا حتى وجدوها ، وحين عادت ألقى بها إلى أهلها وطلقها ، فالشقاؤها أولى بغسل عارهم من زوج وابن عم . .

لم تفطن القتيلة إلى أن الصغير تدرب وأتقن رمي النار بعيدا عنها . . وصدقت أنه يريد اصطحابها للصلاة في عيد «الخضر» ، واطمأنت للخروج ، لأول مرة من حبسها في الدار ، مع صبي ، وقد مر على الحادثة ثلاث سنوات انتظرت فيها الموت كل لحظة فلم يأت ، فظنت أن الأيام أوقفت النزف وحريق الجرح فلعلهم غفروا . . أو صدقت حدسا وعطفا من والد يصر عليهما بالخروج مبكرا قبل لزدحام الدير والمحتفلين ، فتصلي وتعود دون أن يشيئها أحد .

استعدت للخروج بأمل الغفران ، وبدعاء للخضر الأخضر أن يقتل الحقد في صدور من حولها .

وكنيسة «الخضر» دير قديم على الطريق بين بيت لحم والخليل قرب قرية لرطاس ويرك النبي سليمان الثلاث ، منطقة زراعية خصبة

تشتهر بجودة وطعم خضارها وفواكهها . . السفرجل والتين والخوخ والبرقوق .

والخضر ، أو «مار» يعني «القديس» جريس أو جورجيوس أو جورج ، فارس فلسطيني ، ولد في اللد في القرن الثالث الميلادي ، وهو من أنبياء قليلين يتفق المسلمون والمسيحيون على اسمه ، ويحتفلون بعيده معا .

وللخضر مزارات في العراق وسوريا وفلسطين والجزيرة العربية . ويعتقد بعضهم بأن خطوته كانت بمقدار ما تبصره عينه ، ولهذا تعددت مزاراته في الدول العربية فقد كان سريع التنقل بين أقطارها وفي مساحات شاسعة ظهرة بالعمران ، فالنظرة حدودها الأفق .

كما يعتقد بعض المسلمين بأنه ما زال حيا ، وكثيرا ما تسمع النسوة في القرى يبتهلن رجاءهن بـ «يا الخضر الحي لحيرتنا» وللخضر صورة شهيرة يزين بها أهل بيت لحم مداخل بيوتهم ، كما تحتل الأيقونات وأعلاما رياضية في العالم ، وتمثله كفارس على صهوة جواده في ملابس خضر لا يغير لونها ، وهو يطعن تنينا ضخما برمحه ويقتله . وتقف في الخلف عروس حسناء بملابس بيض وقد عقدت ذراعيها على صدرها ترقب المعركة في خوف وتضع التاج على رأسها .

ويعتقد بأن حادثة انتصار الخضر على التنين وقعت بين تركيا وسوريا . . خلص الخضر تلك المنطقة من تنين ظل يسد تدفق النهر بجسده الضخم ، فيموت الزرع والضرع ، ولا يَفْتَح المجرى إلا حين

يقدمون له شابا أو عذراء فيلتهمه ويختفي حتى موعده في العام القادم . وقد وصل الدور في التضحية إلى ابنة الملك ، فليست كعروس وانتظرت باكية ظهور التنين قرب الماء ليفترسها . . وأها الفارس الأخضر وسألها عن بكائها . . فترصد ظهور التنين ثم حاربه برمحه وقتله .

ويحتفل المسلمون والمسيحيون في بداية أيار من كل عام بذكرى انتصار مار جريس على التنين في دير الخضر الفلسطيني .

استغل ذلك اليافع القاتل مناسبة دينية يتقرب بها إلى شقيقته لتأمن له ، وربما لقنعها بأنه ليس كالآخرين يقسو عليها ، وأنه يصدق عكوفها على الصلاة والصوم وندمها على قلة احتمالها ، ويعطف على دموعها ، ولم يدّر بخلدها أنه يراها تنينا ابتلع شرفهم ومستقبله ، وسيطعنها في يوم الخضر برصاصة ، وأن تنين الحقد كان يكبر ويستعد في غفلة منها .

لعل القتيلة استعدت لصلاة تتوسل بها إلى ذلك القديس فيرحم ذلها وعارها وحبسها الطويل في المنزل . . أو أرادت أن تسدد نذرا للخضر حين اعتقدت أنها سلمت من القتل ولجت من إيذائهم ، فقد مرت ثلاث سنوات ، وحسبتها كافية لبداية حياة جديدة ممتعة ، فقد عاشت كل لحظة فيها بطيئة ثقيلة في ترقب موت لم يأت ـ

كل الاحتمالات جائزة .

خرجت مع شقيقها الصغير إلى درب ظنته آمنا ، نزلت درجات

قليلة إلى وسط الطريق الترابي ، سبقها اليافع خطوات وأطلق النار . . على صدرها وبطنها . . ليشهد المارة على بطولته ، ثم خطا فوق جسدها وركض إلى مخفر الشرطة معترفا مزهوا .

أي حقد أوغر صدر طفل واحتل عقله لتصير شقيقة في ضعف عمره ملكية يزهو بخلاصه منها؟ .

تروي أمي قصة القتيلة فتهاجمني مواقف عابرة لم أربط بينها حين وقعت .

لم يكن زوجها دهانا فقط ، كان يعمل في أي مهنة تتوفر دون قدرة على الاستمرار أو الجدية ، ثم قرر أن تكون له ورشة صغيرة لصيانة المنازل ، الصرف الصحي والدهان والبلاط .

يومها رأينا الرجل .

كنا جميعا مراهقات أو طفلات حين قرر والدي صيانة شاملة للمنزل في عطلة الربيع لتعاون أمي . فجاء مع عاملين .

أكثرت أمي من الشاي والقهوة للعمال في طقس بارد . ولا بد أنه عرف أسماءنا ونحن نتنادى بها .

نهرتنا أمي لأننا نختلط بالعمال ، فقلنا إن أدوات الدهان تسقط على الأرض بينما هو في أعلى السلم ويطلب منا التقاطها ، ولكنها تظل تقع فيتنادينا من جديد . . ولم نقل إن إحدانا حين تنحني لالتقاط ما يقع ينفجر ضاحكا ، ويشاركه العامل الآخر .

تعرف الطفلة أن شيئا ما لا يجوز حين يتعلق بها ، إحساس

غريزي ينبهها وإن لم تستطع تحديد الخطأ أو تقدير خطره ، ولم نكن نعرف .

راقبته أمي حتى نادانا . ثم انفجر غضبها ، حيتنا في غرفتنا ، وانهمكت تلعن أبا جدوده وجنس الرجال ، وعيونهم الزائغة وقلة حيائهم . ولم نفهم لماذا منعتنا من الخروج حتى ينتهي العمل ، وبدأت تنادي العامل بتكشيرة لم يخطئها ، ليتناول منها الشاي أو القهوة ومن باب للطبخ فقط .

اكتشفنا قرابة الرجل لجارتنا أم سامي بعد أن لمحته يعمل ، وتحدثت بإعجاب كبير عن زوجته ابنة خالتها ، فهي مثل القمر ، وقد أُجبرت على الزواج منه رغم أن أفضل شباب بيت لحم تقدموا لخطبتها ، ولم يلتفت أهلها لمعارضتها ، فقد لمحوا إعجابا بريئا بابن الجيران ، شاب متعلم وجاد ، قصة بدأت تنسجها خيوط العيون والابتسامات ، فأرغموها على الزواج من ابن عمها الدهان ، فهو أولى «بلحمه» من الغريب مهما كان وضعه ، وقد هاجر الحب إلى أمريكا حين لم يحتمل فقدانها .

وأمي صامتة متحفظة أمام ما سمعت .

تغير الرجل منذ رأته جارتنا . . لم تعد نظراته وقحة ، ولم تسقط أدواته عن السلم حتى أنهى عمله .

لمحته مرارا وعيناه تلاحقان زوارقات طالبات الثانوية في جرأة ، خارجا من عتمة الطريق في قوس الزّوارة المؤدي إلى المدرسة ، وهي

حينها قريبة من كنيسة المهد .

وقوس «الزرارة» زقاق عتيق مظلم يحاذي سور كنيسة المهد ، ويفتح عليه بابها الخلفي الصغير ، وهو أحد أقواس بيت لحم القديمة . . خلف القوس بيوت من التاريخ ، ودهاليز ، وعند مدخله آثار مربط للخيول وبئر سقاية لها ، والطريق حجرية ضيقة عرفت أقواسها أضواء المشاعل ثم الفوانيس قبل الكهرباء ، وغرف صغيرة تتعلق بأدراج حجرية تجاهد لقليل من الضوء . . وسكانها حين مررت بها في بداية مرحلتي الإعدادية ، مسلمون ومسيحيون ، ممن لا يطيقون تكاليف الانتقال إلى مناطق جديدة توسعت فيها بيت لحم الحديثة .

رأيت الرجل ذات صباح فدهشت ، يسير ملتصقا بطرف الطريق كلص ، يطرق إلى الأرض في ذل وانكسار ، ويشيح ببصره إلى السور ، ويتلثم بالحطة السوداء والبيضاء لا تبرز سوى عيناه ، حاتم لا يرى أو يدري كأنما يتجنب رؤية أحد .

تعجبت ولم أفهم . . ثم نسيت . . فالقصص في ساحة مدرسة البنات مثيرة . . أعنفها صراع الكهنة في كنيسة المهد ، وإن أضحى للطالبات حدثا عاديا في تكراره .

يتنازع كهنة الطوائف والمقاومة على حصتهم وحدودهم من الكنيسة الصغيرة فوق المغارة حيث ولد المسيح . . يقسمونها بخط وهمي ، ككل خطوط الطول والعرض والمتدارات على الكرة الأرضية ، ويترصدون في توتر أن يتجاوز كاهن من الطوائف الأخرى حدا رسموه

بالطباشير ، أو بحبات الفول على أرضية صغيرة ، خطوة واحدة داخل حدود ليست له فتنشب المعركة الدامية ، وتسمع من ساحة المدرسة فرع الأجراس فتعرف أن كهنة الطائفتين المتنازعتين يستنهضون بعضهم للقتال .

وقد رأينا يوما عند انصراف المدرسة كاهنا شابا ، وجهه وسيم ويري، كوجه قديس في أيقونة مسيحية ، صغير السن يغرق الدم وجهه ، وقد شُجَّ رأسه بعصا غليظة ، ويخرج مترنحا من الباب الخلفي للمعهد يبحث عمن يسعفه ، بينما يلحق به كاهن طائفة أخرى بهراوة .

طفت قصة ضرب الكاهن الجميل على أحداث كثيرة ، فقد ظلت معظم الطالبات يتهامسن عن جماله ، ويتحسرن على ضياع شاب وسيم كأبطال الأفلام الغربية اختار الكهنوت والعزوبية لا الحب والإعجاب .

بنيت كنيسة المهد على المغارة التي ولد فيها المسيح . . وأقامتها القديسة هيلانة عام ٣٣٠ للميلاد .

تحت كنيسة المهد مغارات وسرداب وبئر تحوي جماجم أطفال أمر بقتلهم الملك هيرودس ، فقد أخبره عرافٌ بولادة ملك لليهود في بيت لحم ، ولم يستطع تحديد الطفل أو يوم مولده . فقرر الملك قتل جميع الأطفال في المدينة ممن تقل أعمارهم عن سنتين ليطمئن على عرشه ، وألقيت رؤوس الضحايا في البئر ، ثم اكتشفت أثناء الحفر لأساسات

كنيسة المهد .

عند الطرف الجنوبي للكنيسة بوابة تقود إلى مغارة الحليب ، كهف جدرانه وسقفه بيض جيرية ناصعة ، ويعتقد بأن المغارة اكتسبت لونها من نقطة حليب سقطت من صدر العذراء مريم على أرضها بينما كانت ترضع طفلها . مكان لجأت إليه وأخفت فيه رضيعها خوفا من عسكر الملك ، وقد هربت العذراء بعد ذلك بابنها إلى مصر . . ويعتقد كثيرون أن لتراب سقف المغارة قوة عجائبية ، فإن أذيب قليله في ماء وشربه مريض يشفيه حتى من السرطان . . وعلى جدرانها شهادات وقصص كتبها أصحابها ممن جربوا التراب فشفوا ، لتكون شاهدا على مغارة معجزة . .

تطل مقبرة اللاتين القريبة من المهد على الملعب الخلفي لمدرسة البنات ، ويقال إنه كان جزءا منها اشترته البلدية وجرّف وألحق ملعبا لمدرسة البنات الحديثة . . ولكنه ظل فارغا لا تقربه الطالبات في أي وقت ، حتى في حصص الرياضة البدنية رغم تهميزه ، فلم يقبل فريق رياضي أو طالبة أن تتعدى حدا سواتها لبداية حدود مقبرة تعلوه وترصد خطوات فيه ، وتراقب من عل أي تدنيس من الأحياء لجزء نهب منها ، فتنقض عفاريت من نبشت قبورهم على من تجرؤ . . .

تتناقل الطالبات قصصا عجيبة عن أرواح أصحاب القبور المجروفة ، وأنها ترفض مغادرة الملعب ، وتعتبره ملكية تعدى الأحياء عليها وتريد الانتقام منهم حين أزعجوا نومها الأبدي ، وتلطش»

الأرواح من يسير عليها حتى بلا قصد ، فالأرواح تلتصق بالتراب وأمكنة دفن أجسادها .

كان التحذير من ويلات الأرواح في الملعب الخلفي هو أول ما يهمس في أذن المستجدات . . طالبات من بيت ساحور وبيت صفافا والمخيمات وبيت جالا يكملن المرحلة الإعدادية والثانوية في مدرسة بيت لحم . . وتبوء كل محاولات الإدارة لإقناع الطالبات بفضاء الفسحة فيه بالفشل . . ومع الأيام خفت إصرار المدرسات ، وربما انتقل الخوف إليهن من أرواح لا تفرق بين معلم وتلميذ . فظلت المدرسة كلها تتكدس في الملعب الأمامي كل فسحة وفي أي نشاط .

أما الرعب الحقيقي اليومي للطالبات فيتجلّى في التعامل مع الحمامات ، وقد بنيت عند أول الملعب الخلفي . . وانتشرت قصص مفزعة عن إطباق الأرواح على عنق من تدخل الحمامات وحدها ، فتبدأ الأرواح بالصراخ والزعيق ثم تهاجمها وتحاول خنقها . . ولهذا يشتد الزحام حد التعارك على استعمالها في الفسح ، فالعفاريت تختفي في حضور الجماعات .

يطل الملعب الأمامي لمدرسة تتوسط الجبل على بيوت تتسلقه شمالاً ، وتتواصل طرق المدينة القديمة بدرجات حجرية واسعة . . بينما يطل الملعب الأمامي على طريق ومدرسة ابتدائية للبنين وبيوت .

في ساحة الملعب الأمامي تنسى الطالبات قصص الجان والأرواح ، وتصير مسرحا لاستعراض المواهب ، التقليد والتميز بالقراءة

واستعراض عضلات للمعرفة ، وتبادل القصص والروايات ، وتتهامس بعض الفتيات بالأخبار السياسية ، فقد كانت فترة ازدهار إذاعة صوت العرب وتعليقات أحمد سعيد لشهر مذيعي العالم العربي يومها ، والذي اتهم بتضليل الناس حين ظل يؤكد أن العرب انتصروا في حرب ٦٧ ، وأن القوات العربية وصلت تل أبيب بينما كان الطيران المصري قد ضُرب منذ الساعات الأولى ، وسقطت القدس وهلم الاحتلال بوابة منديوم ووحدوا القدس تحت سيطرتهم قبل أن يعترف العرب بالهزيمة .

وقد قدر لي أن ألتقي أحمد سعيد في لقاء تلفزيوني ، وسألته متى عرف بهزيمة ٦٧ التي غيرت التاريخ العربي فقال منذ يوم الاثنين٥-٦-٦٧ أي منذ الساعات الأولى للحرب ، ولكن طُلب إليه أن يرفع معنويات الشعوب «بتشجيعها» «وهيا أهلا بالمعارك» ، لعل جبهات العرب الأخرى- سوريا والأردن- تصمد ، ولكن . . هزم الجميع .

أما الأخبار التي لم تكن تنقب أبدا عند الطالبات فهي أخبار المطربين والفنانين وأفلام السينما ، وكان عبد الحليم حافظ وأحمد رمزي تهمي قلوب الطالبات .

ذات صباح شغلت المدرسة بقصة واحدة ، فضيحة مدوية هزت بيت لحم ، عن شابة جميلة متمردة تركت بيتا وزوجا وأطفالا وهربت .

وتلون مخيلات المراهقة المكبوتة قصصا تشبه ما تراه في الأفلام والروايات ، ففقزت من تفاصيل الحكاية صورة الدهان ودلت عليه ، وفهمت لماذا كان يسير متخفيا كلص ، ذليلا يتجنب الناس ويستر وجهه .

هربت زوجته وابنة عمه وتركت له البيت وطفلين ، ولا يعرف أحد ، أين أو مع من .

اهتزت مدينة صغيرة بقصة امرأة ضالة شابة وجميلة ، وحين تكون الواقعة في مدينة صغيرة يعرف كل الناس بعضهم ، يجمع الخيال بقصص وشطحات الجنس والكبت والحرمان .

تعددت الروايات .

قالت جارتنا أم سامي وهي تدين ابنة خالتها :

«صحيح أن زوجها قاس ، ويضربها لأي سبب ، ويمنع عنها المصروف وهو عاطل معظم السنة وكسول ، وبخيل حتى على أطفاله ، ويشتمها ويهينها أمامهم بلا سبب ، وينالها قصبا بينما الصغار يسمعون صراخها . . إلا أن هذا لا يمنحها حق مغادرة منزلها؟! المرأة الشريفة لا تفعل هذا لأي سبب؟!» . وصحيح أن ولدها وأخاها الكبير يئسا من إصلاحه . . ولم يعد لها عندهما إلا أن تصبر وتتحمل حتى يكبر ولدها . . فلا أحد منهما يستطيع إعالتها مع طفلين . . ووالدهم أولى بنفقاتهم . مع هذا كله ، كان عليها أن تصبر .

يوم أعادها والدها إليه ، ضربها وأهانها أكثر .

تتناثر القصة من روايات العارفين .

في يوم الواقعة توحش الزوج كما لم يحدث من قبل . تسللت فباعت لسورة ذهبية صغيرة هدية من والدها يوم تزوجت ، وهامت على وجهها لا تعرف إلى أين .

ظل يضربها كلما تذكر أنها لا تطيقه ، أو تذمرت من حياتها الصعبة ، فنفد صبرها . . تركت له عذابها وطفليها وهامت لا تعرف إلى أين . .

والسذاجة تتوهم الخير في الناس ، وفي تقدير الظروف . . هي قلة الوعي عند كثير من النساء .

لعلها تصورت أن الخلاص سهل ، تتوجه إلى مكان لا يعرفها فيه أحد ، تعمل وتختفي وتبدأ من جديد بخيارها وحدها . .

أدرك السائق مشكلة امرأة جميلة ساذجة حائرة تبكي طوال طريق لا تعرف ، عرض عليها المساعدة حين توقف في عمان فاحتارت وترددت . . أدرك أنها غريبة وتهرب من مشكلة . . قبلت عطفه بخوفها ، وأعطته اسما ليس لها ، فأبقاها في بيته مع زوجته وأبنائه حتى هدأت . .

وحين توسمت فيهم الخير صارحتهم بتفاصيل مأساتها ، وطلبت مساعدتهم لتعمل وتختفي من حياة رجل شرس . . قبلت زوجته وجود غريبة جميلة في بيتها على مضض ، ثم انقلب تعاطفها غيرة وشكا حين أحست إعجاب زوجها بها ، تنمرت في وجهها وهي تحس

أن عطفها قد يكلفها بينها . طردتها وأقسمت أن تبلغ أهلها . . صحبها السائق إلى منزل أحد رجالات عمان ليحل له مشكلة وضع نفسه فيها .

أعادوا الهائمة إلى بيت لحم .

تتوافق أم سامي وأمي على خطيئتها حين هربت . فقصص معاناة النساء لا تحصى ، ولكن واحدة منهن لم تجرؤ أن تفعل مثلها . . وخروجها من منزلها عار يستوجب الموت ، فلا أحد يعرف ماذا حدث بين هروبها وعودتها ، ومن يصدق قصة حدب وعطف لوجه الله من سائق غريب على امرأة صبية جميلة هاربة ووحيدة ، وهي مسيحية وهو مسلم؟ . لو أنها التقته بلا معرفة أو تخطيط ثم يخفيها شهرا كاملا ، ثلاثين ليلة بثلاثين هلوسة محمومة لا تتوقف!

تولدت الخيلة الجنسية بقصص لن يوقف هتفها سوى الدم .

أذكر قتيلة بيت لحم كلما قرأت عن جرائم الشرف . . تايرها الأزرق ينحسر عن ساق شديدة البياض ، تختلج ويهتز جسدها بالموت في استسلام ، تنزف دمها وروحها عند عتبة أبواب صُدّت دونها ، يمشي فوق جثتها طفل قتلها ، ويتركها سائق عابر رغم نبض الحياة فيها .

■■■

كتابات
WRITINGS

نساء على المفارق

رأيت ما أربكهما من النافذة اليمين .
قتيلة ..
على الأرض وفي عرض الطريق امرأة في منتصف الثلاثينات ترتدي تايرًا أزرق بلون السماء ، وقعت على جانبها الأيسر وتتضرّج بدماء نزفتها ، ذراعها اليسرى ممدودة على الأرض ، واليمنى تقبض على قلبها ، تتناوب عليها خلجات الاحتضار فيهتزّ جسدها مع كلّ نوبة .
أصرخ بالسائق أن يتوقّف ، فالمرأة ما زالت حيّة ، ونستطيع إسعافها وحملها إلى المستشفى القريب ، فظلّ مسرعًا كأنّه لم يسمعني ، ومثله فعلت العائلة .. أشاحت المرأة بوجهها عن رجائي « ولوت بوزها » إلى الناحية الأخرى تراقب الطريق .. وأنا ألحّ وأتوسّل للسائق أن يتوقّف ، فحرام ما نفعله ، فهي حيّة ويمكن إسعافها .. لم يجب . فقط ، رمقني من المرآة أمامه بنظرة احتقار أخرستني وإن لم أفهم سببها ، ثمّ انطلق لا يلوي على شيء .
خيّم الصمت الثقيل . صمت تآمر على موت رأيناه ، فأسكتنا جلاله وهروبنا منه.

ISBN 978-9953-36-306-4
9 789953 363066